الاستاذ جبر ضومط

ومباحثهُ في نشوء اللغة العربية

مقدمة للمرحوم الدكتور صروف

من الخطبة التي اعدها قبيل وفاته لتتلى في يوبيل الاستاذ الذهبي

للشيخ أوقات يود فيها انقضاء الاجل ويقول مع لبيد

ولقد سئمتُ من الحياة وطولها وسؤال هـذا الناس كيف لبيدُ

وهي أوقات الضعف وأوقات المرض وأوقات فقد الاخلاء والاقارب . ولهُ أوقات غبطة وحبور أوقات يرى فيها تحقيق أماني الشباب أو يجني ثمر ما غرسهُ زمن الكهولة أو يسمع عن فوز رفاقهِ وأصدقائهِ ومحبيهِ

كل ذلكم مرَّ عليَّ وأبقى أثرهُ في نفسي . تولاَّني الضعف في سمعي حتى صرت أتجنب المجتمعات ومرضت في بداءة العام الماضي حتى قطع الرجاء مني وفقدت والديَّ وأخويَّ وثلاثاً من أخواتي وجمًّا غفيراً من تلاميذي وأصدقائي

ولكن هذه المساوىء تقابلها نعَم كثيرة حييتُ بها ومنها ما دعاني الى كتابة هذه السطور وهو أن أحد تلاميذي في الصغر ورصفائي في الكبر بلغ بسعيهِ وجدهِ درجة أهَّلتهُ لأن يحتفل بهِ عارفو فضلهِ في بلادهِ وفي سائر البلدان حيث انتشر تلاميذهُ وقرئت كتبهُ وعرفت آراؤهُ العلمية

صديقي الاستاذ جبر ضومط بل الفتى جبر ضومط رأيتهُ منذ ثمانٍ وخمسين سنة . ذهبت الى برج صافيتا أو صافيتا البرج في صيف سنة ١٨٦٩ وأقمت فيها أكثر من شهر ولا تزال صورتها في ذاكرتي لانها ممتازة ببرج شاهق مبني بحجارة جافية لم أرَ أكبر منها الاَّ الحجارة الكبرى في قلعة بعلبك . ارتفاع هذا البرج أكثر من ثلاثين متراً أو نحو ارتفاع برج الساعة في هذه الجامعة وطولهُ أكثر من ثلاثين متراً وعرضهُ نحو عشرين ونحن جدرانهِ — وهنا المزية الكبرى — ثلاثة أمتار الى أربعة حتى أن السلم الذي يصعد بهِ الى طبقتهِ العليا والى سطحهِ قائم في باطن جدار من جدرانهِ وحول هذا البرج مبان ضخمة حجارتها كبيرة منحوتة باقية من قلعة قديمة بها بناها الصليبيون اما البرج فلعله بني في عهد الفينيقيين او الرومان

بناء مثل هذا ترتسم صورتهُ في الذهن ولا سيما في ذهن الشاب قبلما تكثر مشاغل الحياة وترسخ معهُ صور كل ما حوله او يتصل بهِ . وقد مرَّ عليَّ الآن ثمانٍ وخمسون سنة ولا ازال اتذكر صافيتا وكل ما رأيتهُ بها او الذين لقيتهم من سكانها. أفلا يؤثر منظر البرج العالي في نفس ولد من ابناء تلك القرية يراهُ كل يوم من حين أُميطت عنهُ التمائم ويحملهُ على طلب المعالي

كانت اقامتي في غرفة على تل مقابل للبرج والى جانبها مدرسة صغيرة لاولاد القرية انشأها المرسلون الاميركيون يعلّم فيها رجل من ابل السقي وبين تلامذتهِ ولد لم انس صورتهُ لانهُ انتقل بعد ذلك الى مدرسة عبيه فكنت اراهُ فيها ثم صار تلميذاً لي في هذه الجامعة وخلفني في تدريس العربية وآدابها . ولم يقنع بالخطط التي سار عليها أسلافهُ بل اختط خطة مبتكرة في الدرس والتدريس

***

هذه مقدمة طويلة اطول من كل مقدمة كتبتها . ولكن لا تخافوا ان آتي بعدها بكلام مسهب لانني اعلم ان الوقت محدود ولو كان الموضوع حقيقاً بالاسهاب

الاستاذ جبر ضومط لو اكتفى بنظم الاشعار كما كان ينظم بُعَيد رحلته الى السودان او بتعليم الصرف والنحو والبيان كما يعلمها كثيرون غيره لما استحقَّ في رأيي ان يحتفل بهِ هذا الاحتفال ولو قضى في التعليم ستين سنة لا خمسين لما وجدت سبيلا لالقاء هذه الكلمة عنهُ . ولكنهُ عَمِلَ ما هو اهم من ذلك كثيراً بحَثَ في نشوء اللغة العربية بحثاً احسبهُ مبتكراً عندنا وممهداً لعمل اعدهُ من انفع الاعمال

المشتغلون بالعلم كثيرون ولكن قلَّ منهم من يبقي اثراً يذكر بهِ . فالذين اشتغلوا بقواعد العربية منذ الف ومائتي سنة الى الآن يعدون بالمئات او بالالوف ولكن قلما نذكر منهم غير سيبويه والمبرد والكسائي وابن جني وابن مالك وابن هشام وأمثالهم من الذين وضعوا قواعد الصرف والنحو ومع ذلك فعمل هؤلاء كلهم مقصور على الجمع والتبويب وما منهم من بحث عن اصل العربية وكيف نشأت كلماتها وتصاريفها . فاننا صرنا نعلم في هذا العصر ان لغات البشر التي تعدُّ بالالوف كانت في زمن متوغل في القدم لغة واحدة قليلة الكلمات بل الاصوات ثم تفرقت طوائف وكل طائفة تشعَّبت شعباً كثيرة ودخل المزج والنحت في كلماتها حتى بلغت ما بلغتهُ وهذا شأن العربية ولكنني لا اعلم ان احداً اطلق هذا البحث على العربية من ابنائها قبل الاستاذ جبر ضومط

الذين تعلموا الصرف والنحو وعلّموهما لا يحصى عددهم ولكنني لم ارَ لاحد بحثاً

في كيف بني الفعل جلس على فتح آخره ولا كيف تدخل عليه الهمزة فيصير متعدياً بعد ما كان لازماً ولا من اين اتت التاء التي تلحق الفعل الماضي فتدلُّ على المتكلم اذا كانت مضمومة وعلى المخاطب اذا كانت مفتوحة وعلى المخاطبة اذا كانت مكسورة. ومثل ذلك كل تصاريف الافعال مجردة ومزيدة مفردة او ملحقة بالضمائر فانها كلها بلغت صورها المعروفة بعد ان دخلها المزج والنحت مدة قرون لا تحصى. والاستاذ ضومط تمكن من البحث في هذا الموضوع وكشف الستار عن غوامضه لمعرفته العبرانية والسريانية شقيقتي العربية ولو عرف الحميرية والحبشية لزاد توسعاً في البحث وكشفاً للغوامض فهو مثل درنر وليل في علم الجيولوجيا وتولد طبقات الارض ومثل لامارك وداروين في نشوء الاحياء وتولد بعضها من بعض ومثل مندل في كشف ناموس الوراثة وتطبيقه على الاحياء

اليكم بضعة أمثلة من كتابه الخواطر في اللغة الذي نشره منذ اثنتين وأربعين سنة فانهُ وجد أولاً بالاستقراء أن الكلمات المتشابهة في مخارج بعض حروفها تتشابه في معانيها كجذع وجدع وجدم وجذم وكبض وحبط. وكهجأ وهجع ونكتم وكتم ونخر وختر وختل وكقطب وقطف. وارتأى أن ذلك كان سبباً لتولد كلمات مختلفة لفظاً ومشتركة معنى. ووجد أن وزن المطاوعة (انفعل) مركب من لفظة أنا ضمير المتكلم والفعل المجرد فقولنا انغمستُ مساوٍ لقولنا أنا غمستُ أو غمست نفسي. ووزن افتعل أصلهُ اتفعل كما يلفظهُ المصريون وهو مركب من ات ومعناها ذات أو نفس وهي إت في العبرانية ويت في السريانية وعليه ففعل المطاوعة مركب من الفعل المجرد وكلة معناها النفس. اما وزن استفعل فقال انهُ مطاوع قياسي لوزن سفعل عند السريان ورجح أن السين منحوتة من فعل مات يدل على الوجود المطلق ومن بقاياهُ ليس ولات وهما مؤلفتان من لا النافية والفعل المذكور للدلالة على نفي الحال أو الكون وعلى ذلك تكون استفعل مركبة من ثلاث كلمات وهي اس وات وفعل فتلاحمت اهجاؤها مع الايام فصارت استفعل

ومن هذا القبيل تعليلهُ للضمائر فان لضمير المتكلم في العربية صورة واحدة وهو انا مفرداً ونحن جمعاً. وفي السريانية انا مفرداً وحنن جمعاً وفي العبرانية اني او انوخي مفرداً وانحن اونحن او انو جمعاً وواضح من ذلك ان لفظة نحن العربية مركبة من نا او انوخي العبرانية الحق آخرها بالنون للدلالة على الجمع

ثم بيَّن ان الضمائر المتصلة منحوتات من الضمائر المنفصلة فالتاء المضمومة من

انوخي والمفتوحة من انتَ والمكسورة من انتِ والواو من همون أو همو والنون في ضربن من هنَّ ونا من نحنُ وهلم جرًّا

وكتاب الخواطر على صغره جمع اكثر المبادىء الاولية التي تمشت عليها اللغة في نشوئها . وهو بحث مبتكر في العربية على ما اعلم . طرقتهُ انا في السنة التي طرقهُ فيها صديقي الاستاذ جبر كما يرى في الفصول التي انشأتها في المقتطف سنة ١٨٨٦ وموضوعها توالُد اللغات ونحوها ولم اكن اعلم ما هو فاعل ولا هو يعلم ما انا فاعل ولكني اطلقت اكثر الكلام على اللغات كلها ولم اخص بهِ العربية ولم اكن اعرف السريانية والعبرانية حتى استعين بهما على تعليل ما وقع في العربية ولم ارَ بعد ذلك بحثاً لاحد في هذا الموضوع كأن آية الحجاب سُدلت عليه . الاَّ ان ما اثبتهُ صديقي الاستاذ ضومط في كتابه الخواطر شبيه بما كشفهُ مندل في الوراثة فان مباحث هذا الراهب النمسوي التي نشرها سنة ١٨٦٦ طرحت في زوايا المنسيات مع انهُ كشف بها اهم الحقائق البيولوجية الى ان كشفت ثانية سنة ١٩٠٠ فهل يقوم من تلاميذ الاستاذ ضومط من يعود الى هذا البحث ويكون متضلعاً من العربية والعبرانية والسريانية ومن الحميرية والحبشية والقبطية واليونانية واللاتينية والفارسية فيميط اللثام عن تاريخ كل الكلمات التي في معاجمنا العربية . هذا ما ينتظر منكم يا تلاميذهُ ويا مريديهِ

قلتُ في بدء كلامي بعد المقدمة ان الاستاذ ضومط بحث في نشوءِ اللغة العربية بحثاً مبتكراً ومهداً لعمل اعدَّهُ من انفع الاعمال فما هو العمل الذي اعدَّ بحث الاستاذ ضومط ممهداً لهُ

اذا كانت اللغة العربية قد نشأت كما تنشأ كل الاجسام الحية واعتورها التغيير والتبديل كما اثبت الاستاذ ضومط فلا يحتمل ان يمر الف وأربعماية سنة تبقى فيها على حالها تماماً . والواقع انه عرض لها امران جوهريان الاول انها تغيرت تغييراً كبيراً في ألسنة المتكلمين بها في مصر والشام والعراق وتونس والجزائر وبلاد العرب نفسها حتى لا يكاد ابن الشام يفهم حديث ابن تونس ولا يكاد ابن المغرب الاقصى يفهم كلام ابن العراق . الا ان هذا التباين يكاد يكون محصوراً في الكلام وقلما يتناول الكتابة ويحتمل ان يزول اكثره بعد ما سهلت سبل الاتصال وانتشرت الجرائد والمجلات

والامر الثاني وهو المهم انه دخل العربية كثير من لغات الاقوام الذين صارت العربية لغتهم او الذين نقلت العلوم من لغاتهم الى العربية . ولقد كان الدخيل كثيراً في العربية قبل الاسلام لانه لا يحتمل ان يتصل العرب بسكان مصر والشام والعراق

وفارس كما كانوا متصلين ولا يدخل العربية كثير من اللغات المصرية واليونانية والسريانية والعبرانية والفارسية ولو خفي على جامعي العربية اصل كثير من كلماتها فحسبوها كلها من صميم العربية . وهذا بحث كثير الشؤون لا محل له الآن . ثم زاد الدخيل بعد الفتح ونقل العلوم من اليونانية والسريانية والفارسية والهندية ولو لم يعلم جامعو كتب اللغة انه دخيل . هاكم قانون ابن سينا الذي الفه في بداءة القرن الخامس بعد الهجرة فقد عددت في الصفحة الاولى من جزء الاقراباذين مائة اسم من اسماء النباتات وسائر المواد الطبية فوجدت الدخيل منها لا يقل عن سبعين اسماً وقد ذكرها ابن سينا كلها كأنها اسماء مألوفة في ايامه

القرن الثالث والرابع والخامس والسادس كانت من القرون الحافلة بالعلم والعلماء كما كانت حافلة بالشعراء والادباء وكما كان العلماء من اطباء ورياضيين وفلكيين يرحبون بكل كلمة اجنبية تزيد غناء العربية غناء كان الادباء والشعراء لا يستنكفون من استعمال المعرب

ومنذ قام محمد علي عزيز مصر وعلّم بعض ابنائها في اوربا وأمر بترجمة الكتب العلمية الى العربية كما فعل الخليفة المأمون في عصره دخل العربية كثير من الكلمات العلمية ثم اتسع نطاق الترجمة حتى شمل كل انواع العلوم الرياضية والطبيعية والحقوقية والسياسية وصار على المترجمين والمؤلفين ان يحذوا حذو الفارابي وابن المقفع وابن سينا وابن رشد فيبقوا الكلمات العلمية على وضعها وهي تعد بالالوف وعشرات الالوف ومئات الالوف فتغنى العربية بها ويسهل على المتعلمين تناولها او ان يفتشوا عن مرادف لها في العربية ويهملوا ما لا يجدون له مرادفاً وما تتعذر ترجمته . وقد ثبت من بحث الاستاذ ضومط في كتابه الخواطر ان العربية كانت في كل عصورها الماضية قبلما كتب حيّة نامية . ويظهر بأقل بحث ان هذا النمو استمرّ الى الآن افيحسن بنا ان نقف الآن في سبيله موجسين شراً لئلا يدك مقام العربية ؟ لا ياسادتي واخواني العربية قائمة بتصاريفها وتراكيبها لا بالاسماء التي تدخلها فقد دخلها الوف من الكلمات السريانية والعبرانية والمصرية واليونانية ولم تزدها الا غنى وستدخلها الوف اخرى ولا تزيدها الا غنى ولها اسوة بالفرنسوية والانكليزية والالمانية وكل اللغات المشهورة . والكلمات تتنازع البقاء مثل الاحياء ولا يمكث منها الا ما ينفع الناس فلا نكونن عثرة في سبيله .

قوة العلم والعلماء

هي القوة التي ميزت الانسان عن الحيوان ورفعت منار المدنية والعمران هي القوة التي عنت لها القوات الطبيعية فملكت الانسان من مقاودها واطلعته على اسرارها وغوامضها فاظهر منها ما كان مستوراً ونظم ما كان مبدداً منثوراً هي القوة التي تطاول معها الى السموات العلى ونقب بها عن دفائن الارضين السفلى واستعان بها على حل ما اعضل من المشكلات فاهتدى الى معرفة ما كان في عداد المستحيلات وما لو ذكرت بعضه على بعض العامة لرميت بالجنون وتقولوا عليّ ما كان وما يكون

هي التي ذللت البحار فعلا الانسان متونها بمراكبه وخاض عبابها بسفن تجارته ودوارع حربه لا يبالي بها وان قامت مياهها لججاً عظاماً وهبت هوابها هلاكاً وموتآزؤاماً هي القوة التي جعلت الهواء مطية تكاد تكون ذلولا بعد ما شمخ بانفه عن ان يعطي القياد دهراً طويلاً فعملت البالونات الى حيث قصر السحاب وصولاً

ولا يهولنكم ما ذكرته عن قوة العلم فما ان كان الا يسيراً صغيراً وبرقشة على غير العارف يهوّل بها تهويلاً فللعلم قوة اخرى لا تدرك غايتها عظمة وجلالاً ولا يبلغ الواصفون من وصفها وان اطالوا مقالاً واوسعوا لها في ميادين الطروس مجالاً . قوة ازالت عن العقل من براقع الجهل غشاوة بعد غشاوة وبدّدت من كتائب الاوهام كتيبة بعد كتيبة . فظهر الحق ودُحرت الاباطيل دحوراً

قوة غيرت العقل ومجاري تصوراته تغييراً وقضت ان يكون له من ميتة الجهل بعثة ونشوراً فبينت له من صواب الرأي وسداده ما اهتدى معه الى سبيل رشاده فنعمت القوة قوة العلم جعلت الانسان سيد المخلوقات الارضية والحاكم يرجع الى احكامه بين البرية

ولكم كان الجهل يشنّ من غارة شعواء تذهب بالمستضعفة من الناس فريسة للاقوياء ولكم كان يأتي بظلامة عمياء وبلية دهماء وشنيعة شنعاء تذبح معها الابناء وتضحى لها الامهات والآباء الى ان ذهب العلم بآثار الجهل هذه ادراج الرياح ونادى مناديه حيّ على الفلاح فسنت النظامات والاحكام وعينت وظائف الامراء والحكام ووضعت قواعد الفنون والصناعات ومناهج التجارة والمعاملات . هذا فضلا عما توصل به اليه من معرفة نواميس الجاذبية العامة ونظامات الافلاك الخاصة . ومعرفة مقادير السيارات وما لها من الابعاد والمدّات وما يحدثه بعضها في بعض من الاضطرابات وما هنالك من المبادرات والانقلابات

فكان مما ترتب على قوة هذه المعرفة العلمية ان مات القول بدلالات النجوم الوضعية ومات معها اعتقاد السعد والنحس فيها ونسبة ما كان ينسب اليها مما لا تصح نسبته بديهاً ومات ايضاً حوت القمر وتنين الشمس وآلهة الامم الاقدمين كجوبتر ومارس ونبتون وغيرهم مما ذكر في اساطير الاولين ولله در من قال

اين الرواية بل اين النجوم وما	صاغوه من زخرف فيها ومن كذب
تخرصاً واحاديثاً ملفقة	ليست بنبع اذا عدّت ولا غرب
عجائباً زعموا الايام مجفلة	عنهن في صفر الاصفار او رجب
وخوفوا الناس من دهياء مظلمة	اذا بدا الكوكب الغربي ذو الذهب
وصيروا الابرج العليا مرتبة	ما كان منقلباً او غير منقلب
يقضون بالامر عنها وهي غافلة	ما دار في فلك منها وفي قطب

واما تأثير قوة العلم في معرفة الكهربائية والمغنطيسية وقوانين الالفة الكيماوية وشرائع النور والحرارة واستخدام البخار في الصناعات والتجارة وغيرها من السكك الحديدية والبواخر التجارية والحربية فامر يطول شرحه ويعجزنا وصفه . والحق اذا تأمل متأمل رأى من القوة ما تحار له عقول الخاصة فضلا عن عقول العامة ويكاد يظنها الكثيرون ضرباً من المعجزات. والمحكي عن كثيرين من امم الهند وغيرهم من القوم الهمج انهم يظنون في الآلات البخارية والكهربائية ارواحاً تدير حركاتها وسكناتها وتفعل تلك الافعال الصادرة عنها ومثل هؤلاء فليس من قوة في الكون تستطيع اقتلاع هذه الاوهام من عقولهم غير قوة العلم فانها القوة التي تفعل ما لا تفعله الكتائب والفيالق وتسطو على مالا تسطو عليه الرماح الخطية والمواضي المشرفية بل ما تستطيعه قوة العلم في استئصال شأفة مثل هذه الاوهام الفاسدة لمما لا تستطيعه جنود الممالك العظيمة عن آخرها متفرقة كانت او مجتمعة معاً

هذه بنادق الامم الغربية ذات الطلقات المتعددة ومدافعها الضخمة وجنودها المدربة وافرادها الطامعة في المكاسب الحريصة على توفير الارباح جميع هذه لم تستطع ولن تستطيع ان تغير مثقال ذرّة من عقول امم افريقية والهند وما يدخلها من الاوهام والمعتقدات الفاسدة . وما لم تدخل قوة العلم فتهدم ما عندهم من اسوار الاوهام ومعاقل المعتقدات وحصون الجهل والخرافات فلا مطمع بازالتها من عقولهم ونفوسهم ما كرت الايام وتعاقبت السنون والاحقاب

ولقد ادرك هذه الحقيقة كثيرون من اهل الحمية واصحاب الغيرة على ترقية شأن

الانسانية فبعثوا اليهم بطلائع من قوات العلم وفي مأمولهم ان تفعل الاقلام غير ما يفعله الحسام ولسوف يتحقق لهم صحة ما ارتأوه مع الايام

واما العلماء وهم امراء النوع الانساني وقادته في سبيل الفلاح وهداته في معارج المدنية والارتقاء فقوتهم اعظم مما يظن واشد في اعتقادي مما تقدرونها ايها الكرام فانهم الضعفاء الاقوياء والسوقة الامراء. هم القوم الذين لا يعقب عليهم معقب الامنهم ولا يُجرح آراءهم واقوالهم الا العلماء امثالهم. وهم الذين يرجع الى آرائهم في الحادثات المشكلات ويعتمد على اقوالهم في الغامضات والمغيبات هم الذين اذا تناقل الناس قول حكمة مثلا فانما يتناقلونه عنهم. وهذا شأنهم مذ قام الانسان الى الآن وفي كل طور من اطوار المدنية والعمران واليكم التاريخ فانهُ شاهد عدل يشهد بما كان وتنطبق شهادتهُ على ما في العيان فما اثارت الامم الغابرة حرباً ولا شنت غارة الا بعد ان اعتمدت مشورة رجال العلم وهم اهل الدين في تلك الايام والمعقبون على الامراء والاحكام فان شاءوا غضبت الآلهة على البشر وان شاءوا رضيت

واما فلاسفتهم العظام الذين سارت بهم الامثال كسقراط وافلاطون وارسطو وغيرهم من كبار العلماء فقوتهم اعظم من ان يقدرها مقدّر أو يبالغ فيها مبالغ فانها حمات معاصريهم ومن جاء بعدهم من أجيالهم ان حسبوهم في مصاف الآلهة واقاموا لهم في هياكلهم من التماثيل ما كانوا يقيمون مثله لمعبوداتهم وختموا على علومهم من بعدهم فكانت اقوالهم وآراؤهم هي المتابع فيها والمعول عليها وما زالت كذلك الى الآن يتناقلها الناس فيما بينهم فتغير من افكارهم وأقوالهم ومجاري تصوّراتهم وهم لا يشعرون وعلى الحقيقة انها كانت بمثابة حياة تحيا بها عقول العقلاء وقوة يعتمد عليها العظماء والامراء ويتفقه بها الاغنياء والفقراء

وما عقب عليهم في مدركاتهم العلمية والادبية فنسخ من بعضها وغير البعض الآخر الا من جاء بعدهم من جهابذة العلماء واكابر الفلاسفة والحكماء. فاذاً مازالت قوة العلماء هي السائدة على كل القوات والمأخوذ بها بين اهل المراتب والطبقات بل ما زالت اسماؤهم حية حتى الآن وما زلنا نصف الوزراء والعظماء وجلة الملوك والامراء بنعوت مأخوذة من تلك الاسماء ولله در من قال

مضى ذكر الملوك بكل عصر وذكر السوقة العلماء باق

فلا تظن يا شيشرون الرومان انك زلت من عالم الوجود فقد اقام لك ابناء جلدتك من بعد مماتك تمثالاً جعلوه بين تماثيل آلهتهم ودعوك رب البلاغة والخطابة وما دار لسان احدهم ببليغ عبارة من بعدك الا استمدها منك ولا تكلف متكلف حجة او برهاناً الا

نقلا عنك وقد كنت وما زلت امام شيوخهم ومهذب شبانهم

وأنت يا كنفوشيوس فيلسوف الصين من عليك نيف والفا سنة في التراب واختلطت ذرات جسمك مع ذرات تربة الصين فلم تعد تتمايز عنها شيئاً ولو نشرت الآن لرأيت انك ما زلت في عالم الحياة وان قوتك ما زالت تتعاظم كلما مرت عليك الايام والسنون الى ان اصبحت ونيف واربعمائة مليون من الخلائق يقولون بقولك ويأخذون بما وضعته من آدابك وسننك ومن فيهم من الامراء والعظماء والقضاة والحكماء واكابر الجند واعيان الامة جميع هؤلاء حتى سلطانهم الاعظم ابن السماء يوقدون الشموع والبخور كل يوم امام تماثيلك ويتوجهون اليك بنوع من الصلاة والعبادة يسألون آلهتهم ان تقدرهم على فهم حكمتك والقضاء بموجب سننك واذا ولد لهم مولود تقربوا به اليك يعلمونه من اعظامك واجلالك ويلقنونه من مبادىء علمك وحكمتك حتى كأني بالامة الصينية تحيا بك وتتنفس بانفاس آدابك . وانت أيها الفخر الرازي يا ابن خطيب الري لو نشرت من ضريحك لرأيت كتبك العقلية والنقلية وشروحك التفسيرية تتناقل بين جلة القوم وأفاضلهم. وكذلك انت يا صاحب الاحياء ما زلت حياً تفعل عظاتك وآراؤك في النفوس والعقول

وأنت ياصاحب الكشاف والبيان مازال بيانك عالياً على كل بيان وما زلت اماماً للبلغاء في أساس بلاغتك ونايفة فيما اوتيته من سحر بلاغتك ومعجب فصاحتك . وما قدمت خطيب الرومان وحكيم الصين عليك وعلى من ذكرت من ابناء قومك الفضلاء الا لتقدمها زماناً ولا بين لكم أيضاً أيها السادة ان قوة العلماء هي على مارأيتم حتى بين قوم لا كتاب لهم . او بعد هذا ينكر منكر قوة العلم والعلماء ام يتجاسر متجاسر ان يضع لها حداً أو يمثلها بقوة اخرى غيرها فان منها قوة الجاذبية العامة فان هذه تربط عالم الجوامد المنيتة بعضها ببعض وتلك تربط عالم العقول المتصرفة بعالم الجماد وتسعى بها في مراقي الكمال والعظمة

ومالي وللاعصر الخالية والامم الغابرة فانما الاولى بي ان استلفت انظاركم لمحة الى الجيل الحاضر والى قوة العلم والعلماء فيه فانها أعني قوة العلم قوة تكاد تكون اعظم اثراً مما سلفت في جميع القرون المنارة مجتمعة معاً قوة لا تزال نراها تخضع من عالم العناصر والهيولى وتغير من مظاهر العمران الخارجي بما يوجب ارتقاء شأنه وعظمة آثاره وراحة سكانه وكذلك قوة العلماء فانها لاتنفك تؤثر في عقول الناس وآدابهم وافكارهم وتصوراتهم فترفع أفكارهم عن الخسائس والسفاسف الى ما هو اعلى واسمى وتصوراتهم عن البسائط الى ما هو اجل وارقى الى تصورات عليا أبهة الجلال والعظمة ورواء الكمالات الانسانية

واني لموقن أيها السادة انكم لا تشكون في عظمة قوة العلماء ولافي افادة العلم للعمران البشري عموماً على اني ارى ان هذا ليس موقف الاهمية وانما موقف الاهمية الحقة في ما هي المعارف التي توجب لصاحبها شأناً ومكانة في العمران حيثما كان من غير تخلف في أثرها اصلا وهنا استأذنكم في بسط الكلام شيئاً في هذا الشأن فأقول ان من المعارف ما تعم الحاجة اليها في ذاتها اما لانها وسيلة لنقل القوة العلمية او لمعرفة كيفية استخدامها والقدر اللازم معها ونوعه واما لتوقف المعاملات بين الافراد عليها . ومنها ما هي خاصة وليس لنا بها حاجة الآن

أما المعارف العامة الحاجة اليها فاذكر منها ثلاثة انواع وهي اللغة أولا ومعرفة اخلاق الناس ومشاربهم ثانياً ومعرفة نظامات المملكة وقوانينها التي تجري بمقتضاها جميع اصناف المعاملات ثالثاً فمن جمع في شخصه هذه المعارف الثلاث فقد حصل من القوة ما يضمن له بين اقرانه من المكانة عاليها ومن المرتبة خطيرها وجليلها

اما اللغة فلانها ترجمان الافكار بين المتكلمين والموصل الذي تنتقل عليه القوة الفكرية الى اذهان السامعين بل هي مرآة المتكلم ترى فيها افكاره واخلاقه وحسن آدابه ومبلغ تهذيبه. ولا أدلّ على خطر المرء من لسانه فاذا تكلم انزله السامعون في المنزلة التي يستحقها فيضعون منه أو يرفعون على حسب ما يسمعون واللغة في ذاتها خلابة تجور بذي اللبانة عن هواه . ولحسن البيان موقع في النفوس ما من موقع وراءه ولنفثات البليغ اسحر في الالباب من نفثات الراقي وألعب بالاعطاف من حميا الساقي ورب ذي بلاغة يذهل السامعين عن انفسهم ويشغلهم عن اخذ أنفاسهم فيتغيبون عن الوجود بما ينفثه عليهم من نفثات بلاغته ويدير عليهم من مسكر بيانه ورقيق عبارته

ولا ارى أولى بحسن البيان وقوة البلاغة من اعيان القوم ونبلائهم واصحاب الوجاهة وأغنيائهم فانهم لو اضافوا هذه على ما خصهم به المولى لبلغوا مبلغاً لا يناله المتناول ويقصر عن ادراكه المتطاول والعجب من امثالهم أنى يهملون اللغة ويضربون عن قوة البلاغة وحسن البيان زينتهم اذا ارادوا تزيناً وكمالهم اذا أرادوا كمالا بل هو منشأ تطولهم على الناس وعنوان فضلهم بين الجلاس ولا غرابة معه اذا غالى الناس في الاعجاب بهم على ما غالى الشاعر فيمن كان من قبلهم حيث يقول

معسول اطراف الحديث كأنما ... يسقي المسامع مسكراً او سكّرا
اني لأقسم لو تجسد لفظهُ ... أنفت نحور الغانيات الجوهرا

وأما معرفة اخلاق الناس ومشاربهم فقوة ما بعدها من قوة فان من عرف اخلاق

شخص ومشاربه فقد ملك قياده واصبح يديره كيف شاء ويحمله على ماشاء فيسرّه ويسوءه وينفيه ويفقره ويخدمه ويستخدمه ولا ارى اجهل من رجل يطلب السيادة في قوم وهو لا يعرف شيئاً من طباعهم ولا من اخلاقهم ومشاربهم ولا اجهل كذلك ممن يتصدى لحمل الكافة على امر او لتغييرهم عنه وهو لا يعلم ما الذي يدعو الى اقبالهم ولا ما يوجب نفورهم

والامر الاخير هو معرفة النُّظم والقوانين التي يجرى بمقتضاها التعامل بين افراد الناس وبين لكل حقوقه وتفرض عليه واجباته ولا يخطر لي هنا ايضاً الا مزيد الاختصار ولذلك فيكفيني الالماع الى ان هذه النظامات والقوانين انما يصونها الملك والسلطان والامة اجماعاً ولهذا كانت قوتها قوة هؤلاء اجمعين ومن عرفها واتقن علمها فقد جعل على جانبه قوة المملكة باسرها من علمائها وقضاتها واصحاب الامر والنهي فيها الى سائر من سواهم من اهل المراتب والطبقات * ومن كان على جانبه مثل هذه القوة فاحرِ به ان يكون ذا شأن ومكانة بين اقرانه ما بعدهما من شأنٍ ولا مكانة

ثم إن من جملة النظامات والقوانين ماوُضع لخير العموم منظوراً معه الى ترقية شؤونهم وتحسين احوالهم في الحال والمستقبل معاً ولا يخفى ان هذه النظامات انما وضعت بعد التحري والنظر وطول الاختبار وتوكل الى من يقيمون بمناصبها فمن البيّن اذن ان اصحاب هذه المناصب هم ذوو قوة ووجاهة لتوقف النفع العام عليهم على ان قوتهم انما تقوم بمعرفة تلك المسنونات فاذا جهلوها فلا يفيد وجودهم في مناصبها المخصوصة شيئاً وعندي بل عند جميعكم ان الذين يطلبون الوجاهة والكرامة بالتصدي لهذه المناصب المهمة فعليهم ان يطلبوا العلم بالنظامات الموضوعة لها ويتفقهوا في معرفتها والغاية من وضعها وأسباب ذلك جميعه فانّ لهم بذلك ما يرغبونهُ ويتنافسون في تحصيله من القوة وتوابعها من الاكرام والتجلة والا كانوا خُشُباً مسندة تأنف منهم مراكزهم وتستغيث تطلب ابعادهم عنها لعدم كفايتهم

بقي علوم اخرى غير هذه على ان تلك العلوم لا تعم الحاجة اليها ولا يترتب نفعها المادي لاهلها انما نفعها في ترقية شأن العالم عموماً وهي متروكة لاربابها من اهل العلم في كل عصر ممن لاتهمهم المناصب والرتب ولا يحفلون بالقوة الظاهرة من الاموال والمقتنيات يصرفون انظارهم الى موضوع مخصوص ولا يزالون في التنقيب عنه الى ان يبلغوا فيه مبلغ الطاقة الممكنة لهم في جبلهم وهؤلاء قد يفطن لهم العالم في حياتهم فيوفيهم حقوقهم وقد لا يفطن لذلك حتى بعد مماتهم فيذكرون حينئذ بما عملوا ويبقى تأثيرهم في الكون واهله على ممر الايام الى ما شاء الله

[ثم التفت الى الذين انهوا دروسهم المدرسية ولخاطبهم قائلا] اتقدم اليكم الا تخافوا

أن يحبط سعيكم في طلب العلم ولا يداخلكم شك في انكم ستكونون في مقدمة رجال العمران حيثما كنتم وذلك اذا اعتمدتم على قوة العلم والمعرفة ولا سيما فيما تعم اليه الحاجة بين ابناء جلدتكم فوجهوا انتباهكم لتحصلوا على كل ما يمكنكم تحصيله من حسن البيان والبلاغة فان ذلك وسيلة للتفاهم وواسطة لنقل قوة العلم التي فيكم الى من يجاوركم والا ذهبت ضياعاً لان القوة اذا لم يكن لها من موصل ينقلها لم يكن لها من اثر محسوس كما لا يخفى على علمكم

وكذلك عليكم بمعرفة اخلاق الناس وطباعهم ومشاربهم ودرجات عقولهم واميالهم الادبية فانكم بذلك تعرفون نوع القوة التي ينبغي ان تستخدموها في سبيل منفعتهم وترقية شؤونهم وتحملونهم على اعتباركم والانتصاح بنصائحكم

واهم من هذه جميعها ان تتفقهوا ولا سيما غير الاطباء منكم بدرس نظامات دولتنا العلية ومسنوناتها المبنية على الحكمة والعدالة والمقصود منها صلاح حال الجمهور وفلاح احوالهم فاذا فعلتم ذلك لم يجسر متجاسر ان يفتات عليكم في حقوقكم ولا ان يلبس عليكم في واجباتكم فترتعون آمنين مطمئنين في ظل سلطاننا الاعظم

ترتيب الفعل ومتعلقاته

لا بد في الجملة الفعلية من ذكر الفعل قبل الفاعل مطلقاً وأما ما سواه من بقية المتعلقات فالاصل فيها ان تتأخر عن الفعل الا انها بحسب الصناعة اللفظية لا يتعين بينها وبين الفعل ترتيب مخصوص فلك ان تقدم ما شئت منها على الفعل او تؤخره على ما تراه مناسباً بشرط ان تحافظ على منع الالتباس وتتجنب التعقيد . اما الالتباس فلا يسوغ بوجه من الوجوه لمخالفته الغاية من وضع اللغة واما التعقيد والمراد به كل ما اوجب توقفاً في فهم المعنى المراد او اوجب للذهن تعباً يمكن تجنبه قل او كثر فلا تؤذن به البلاغة والطبع ايضاً يقضي بتجنبه ما امكن

وهذان الشرطان اعني منع الالتباس وتجنب التعقيد (او توخي سهولة الفهم) لا يمكن حصرهما في ضوابط معينة انما يرجع في ذلك الى مقامات الكلام والى نظر الكاتب وخصوصية في فطرته من جهة والى معرفة القواعد والتراكيب النحوية المتعارفة والمتفق عليها من جهة اخرى. وارى ان الاطالة في ما يوجبهما او ينفيهما ضرب من التكلف لا حاجة بنا اليه وخير من ذلك ان نذكر بعض الملاحظات في شأن ترتيب الفعل ومتعلقاته وهي لا تخلو من فائدة

(١) قدم الزمان وما يتعلق به على الفعل في كل جملة يبادر فيها الذهن لداع من الدواعي الى تعيين الزمان كقولك مثلا « يوم الاربعاء الواقع في ١٠ تموز الساعة ٨ ب.ظ تحتفل المدرسة الكلية السورية الانجيلية احتفالها السنوي الخ » وسببه انه مع ذكر الفعل الذي يدعو مقتضى الحال الى تعيين زمانه كثيراً ما يبادر الذهن الى تعيين ذلك الزمان فان اصاب في التعيين وهو القليل النادر اقتضى ذلك احضار الزمان في الذهن مرتين مرة قبل ذكر الزمان في الجملة ومرة بعده وهذا اسراف. وان اخطأ كان في ذلك مشقة على العقل في اصلاح خطاه والرجوع الى الصواب وهو من الاسراف ايضاً بخلاف ما اذا ذكر الزمان اولاً فانه لا يكون من العقل على الغالب الا انه يتهيأ لانتظار الفعل حتى اذا ذكر ادركه من غير تكلف لاحضاره اكثر من مرة او لاصلاح ما اورثه التسرع

(٢) قدم المستفهم عنه مطلقاً كقولك « ماذا فعلت » و « متى اتيت » وهو معلوم

(٣) قدم ما اردت تعيينه او قصره او تخصيصه اذا كان مقتضى الحال يدعو الى الاختصار او يؤذن به فان مجرد التقديم دليل على ما اردت عند البلغاء من غير استعانة

بلفظ موضوع له (كلفظة لا غير او العطف بلا الخ) مثال ذلك قولك « ماء شربت » تعني « شربت ماء لا خمراً » وقول القائل

بكم قريش كفينا كل معضلة وأمَّ نهج الهدى من كان ضلّيلا

اي بكم لا بغيركم او دون من سواكم كما لا يخفى . حكي ان بعضهم شتم صاحبه شتما قبيحاً فاعرض المشتوم عن جوابه فقال الشاتم اياك اعني فاجاب المشتوم وعنك اعرض . وكل ذلك مما تقضي به بديهة الطبع فضلا عن حسن الذوق

(٤) اخّر ذكر العلة او سبب الفعل عن الفعل لان العقل لا يسأل عن سبب الفعل الا بعد وقوعه ولذلك كان ذكر سبب الفعل قبله مما يتأذى منه العقل لما فيه من المخالفة لمقتضى الترتيب الطبيعي الا لغرض كارادة القصر او التعيين على ما مر وكأن يكون السبب واقعاً معلوماً من قبل والفعل (او معناه) المسبب عنه اشبه بالنتيجة له فيتقدم حينئذ ذكر السبب وعليه ورد في سفر التكوين « لانك سمعت لقول امرأتك واكلت من الشجرة التي اوصيتك قائلا لا تأكل منها ملعونة الارض بسببك بالتعب تأكل منها كل ايام حياتك » وكقول رئيس المحكمة مثلا « بناء على ثبوت الدعوى المقدمة من فلان على فلان بشهادة الشهود العدول نحكم على فلان بكذا الخ »

ومما يقرب من هذا قول بعضهم

لما رأيت مواردا للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومي نحوها تسعى الاصاغر والاكابر
لا يرجع الماضي اليَّ ولا من الباقين غابر
ايقنت اني لا محا لة حيث صار القوم صائر

فانه قدم على الفعل (ايقنت) ما اوجبه من الاسباب الواقعة المعلومة لترتب اليقين عليها بما يشبه ترتب النتيجة على المقدمات

وقريب من هذا الباب ما اذا كان الفعل واقعاً معلوماً عند المخاطب والعقل متوجهاً للسؤال عن سبب الفعل فانه في مثل هذه الحالة تقتضي البلاغة ذكر السبب اولاً لاسيما اذا كان للفعل حَسَبٌ تبعة التنصل منها . حكي عن بروتس احد عظماء الرومان وصديق قيصر الكبير انه بعد ان قتل قيصر قام فيهم خطيباً واليك مفاد بعض ما قاله ولا فرق هنا بالنسبة الى غرضنا بين ان تكون نسبة هذه العبارات اليه حقاً او ادعاء قال « لان قيصر كان صديقي فانا ابكي عليه واندبه ولانه كان ذا حظوة موفقاً فانا اهش لهذا واستعذبه ولانه كان بطلا شجاعاً فانا اجله واحترمه لكن لانه كان يتشوف الى الملك واذلال الرومانيين قمت عليه وقتلته »

فانظر كيف قدم ذكر السبب في هذه الجمل الاربع اما في الثلاث الأول فلان السبب واقع معلوم من قبل واما في الرابعة فلان الفعل واقع معلوم دون السبب مع انصراف الخواطر الى معرفته وتوجه غاية المتكلم الى ان يتصل من تبعة الفعل بذكر السبب الذي يقوم به عذره لدى السامعين

(٥) قدم ما اردت على الفعل محافظة على الفاصلة في الكلام المسجوع ومحافظة على الوزن او القافية في الكلام المنظوم (على شرط عدم الالتباس وعدم التعقيد) كالآية « خذوه فغلّوه ثم الجحيم صلّوه ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه » وكقوله

وما كل بمعذور ببخل ولا كل على بخل بلام

وكقوله ايضاً وجدتموهم نياماً في دمائكم كان قتلاكم اياهم فجعوا

وكقول الآخر عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه فكل قرين بالمقارن يقتدي

وهذا كثير شائع

(٦) توخّ المطابقة بين الجمل المتعاطفة فقدم في المعطوف ما هو مقدم في المعطوف عليه وأخر هنا ما هو مؤخر هناك كقولك : انه كان لا يؤمن بيوم الحشر العظيم ولا يحض على طعام البائس المسكين . فاذا قلت مثلا انه كان بيوم الحشر العظيم لا يؤمن فقل وعلى طعام البائس المسكين لا يحض . وقد تكون المطابقة بين طرفي كلام واحد كقول الخوارزمي « ولكن الكبير من الكبير يصغر كما ان الصغير من الصغير يكبر » فاذا قلت ولكن الكبير يصغر من الكبير فقل كما ان الصغير يكبر من الصغير

واعلم ان متعلقات معنى الفعل كالصفة والمصدر يجري عليها مع الصفة والمصدر ما يجري على متعلقات الفعل معه مما مر بك واللبيب اذا احسن اعتباره في ما ذكرناه كفاه ذلك عن مزيد التطويل وكثرة الامثلة

الى ماذا نحن صائرون وكيف نتلافى امرنا (١)

ايها السادة والسيدات

علم الله اني استعفيت من المقام في هذا الموقف امامكم فلم أعف . وحاولت جهدي في ان أتخلى عنه لغيري ممن يتشوف البادي والحاضر للاصغاء اليه فلم انل بغيتي . حاولت ان اتخلى لرب الخطابة والمقدم فيها العلامة الدكتور وليم فانديك ويا حبذا لو تم ما حاولته فانه لو قام مقامي هذا الفاضل على ما اشتهيت وسعيت لكنتم تسمعون منه الآن غير ما تسمعون وتمر بكم الساعات لا الدقائق وانتم صاغون ومعجبون بل كنتم تودون لو يمد الليل بساعات من النهار وانتم باسمون ومبتهجون لكن صدق شاعرنا المشهور حيث يقول

ما كل ما يتمنى المرء يدركه تجري الرياح بما لا تشتهي السفن

فقد جرت الرياح بسفينة هذا الواقف امامكم وهو مبلبل البال مضطرب الخواطر يخشى ان لا يحسن ادارة دفتها فلا تصل به الى حيث يريد وان هو احسن القصد وافرغ في سبيل ذلك غاية المستطاع ومنتهى الجهد . على اني اخلصت النصح في ان يكون غيري الخطيب ممن ترضونه ثم لما لم يسمع نصحي ولا سوعدت على اخلاصي بذلت غاية جهدي في ان آتي بأحسن ما يؤتى به من مثلي فان جاء في ما سأقول شيء يشفع بي عندكم فذلك لفضل فيكم وجزاء لي على اخلاصي والا فاللوم على من اوقفوني هذا الموقف لا علي لاني نصحت اولا واجتهدت ثانياً وبذلت في هذا وذاك غاية ما في وسعي ولا تكلف نفس فوق ما في وسعها

موضوعي ايها السادة والسيدات « الى ماذا نحن صائرون » وهو موضوع بعيد المسافات متوعر المسالك فان انا اخذت في جميع طرقه واطفت به من جميع جهاته اعوزني الوقت وحملكم من المشقات ما لا تطيقون وهب ان فسح لي في الوقت فمن اين لكم الصبر اذا سلكت بكم في جميع منعرجاته وطفت معكم في جميع معالمه ومشاهده بل أرى الوقت لا يؤذن لي بالمقدمات التي تقدم عادة بين يدي الموضوع ولا بالتمهيدات التي تمهد قبل ان تقفض مسالكه ويخاض في مخاوضه فاعذروني اذن في اقتضاب الكلام اقتضاباً وابتداء الغرض منه ابتداهاً فاقول . انظروا الى جبالنا تعلموا الى اين نحن

---

(١) خطبة كتبت لتتلى في جمعية تهذيب الشبيبة السورية

صائرون . هذه جبال لبنان من اولها شمالا الى آخرها جنوباً جميع اعاليها جرداء قرعاء يسلك فيها السالك ساعات لا يرى شجرة ترمي ظلا او تمسك تربة فاذا وقعت عليها العين من بعيد لا تستقر على ما كان ينبغي ان تستقر عليه من انيق خضرة تسر العيون بجمالها او غابات ادواح رائعة تتسع الصدور لاتساعها وتستشعر القلوب والنفوس اعظاماً لعظمتها وهيبة واجلالا لهيبتها وجلالها. نعم لو كانت كما ينبغي ان تكون لا على ما هي عليه الآن لكانت احسن بقاع الله ماء وهواء وجمالاً وجلالاً ولكانت بلاد سويسرا على شهرتها ليست الا وصيفة من وصائفها او أمة من امائها. بل لو كانت كما ينبغي ان تكون لاعتدلت فوق اعتدالها فصولنا فكان صيفنا اعل هواء والطف حراً وأقل جفافاً واطرد شتاؤنا فكان اكثر مطراً وجاء الباكر منه والمتأخر في اوانهما معتدلاً لا طوفاناً يجرف التربة جرفاً ويخرب السواحل تخريباً ولا وذاذاً غثاً لا ينقع صدى ولا يروي لأرض غليلا . وليس الحال في بقية جبال سورية وتلالها الا على ما وصفنا به جبال لبنان فان اكثرها جرداء قاحلة بعد ان كانت غاباً واحداً من ادواح الأشجار على اختلاف اجناسها وانواعها

والمترتب على هذا فضلا عما ذكرنا من اختلال فصولنا وقلة امطارنا وعدم اضطرادها شتاء وربيعاً ان قيمت اخشاب البناء وقل الوقود في البلاد واعوز وجدانه في المدن والقرى الكبيرة وارتفعت اسعار الفحم فيها

من اين ما نراه من مستودعات الحطب في جوار ميناء الحسن امن غابات لبنان هوام من حراج صنين والشمراء ؟ ولا يبعد بعد قليل ان نرى مثل هذه المستودعات او ما هو من بابها في دمشق وغيرها من مدن الداخلية كما نراها اليوم في اكثر مدن السواحل

لو لم يكن الا هذه المستودعات لهان الامر لان ما فيها يردنا من بلاد عثمانية وفي سفن على الغالب عثمانية ولكن انظروا الى طرق لبنان المزدحمة بدواب النقل واخبروني ماذا تحمل هذه ؟ انها تحمل احجاراً سوداً مربعة الشكل يقال لها فحم حجري يردنا من انجلترا او فرنسا او بلجكا وهي بلاد اجنبية وفي بواخر اجنبية ايضاً ليوقد في معامل بيروت ولبنان او ليوقد في مواقد حديدية اجنبية للدفء شتاء في كثير من بيوت بيروت وكثير من بيوت لبنان الكبيرة . بل هنالك اكثر مما ذكرنا . ادخلوا البيوت في بيروت وفي كثير غيرها من المدن والقرى الكبيرة وفتشوا في مطابخها واخبرونا ما هو نوع وقود هذه المطابخ انكم قلما تدخلون بيتاً الا وترون وقوده البترول من باطوم او الولايات المتحدة . فلماذا استبدلتم يا اصحاب البيوت مواقد مطابخكم بطباخات البترول ؟ أليس لان جبال لبنان وسورية اصبحت قرعاء جرداء فاعوزنا الحطب والفحم

واضطررنا اضطراراً الى الطبخ والغسل على البترول . هذه نظرة نظرناها الى جبالنا فقولوا لي بعدها يا من ترون معي ما ارى «الى ماذا نحن صائرون؟» وأسفاه وأسفاه اننا صائرون الى الخراب والافلاس غداً او بعد غد

دعونا من هذه النظرة ايها السادة وانظروا نظرة اخرى الى حالة زراعتنا . سهولنا ومزارعنا اكثرها بور والمزروع منها وهو ما قارب المدن والضياع لا يكاد يبلغ ربع الارضين . واما ما بعد فمتروك للشوك والحسك . ويا ليت ان في البلاد ماشية من الغنم والبقر وسائمة الخيل تتكاثر وتنمو على هذه الارض المتروكة بوراً فكنا اذن نستوفي شيئاً من خصبها الطبيعي بصورة الماشية ولكن الحال ليست كذلك فان اغنامنا قليلة جداً وكذلك بقية الماشية حتى تضطر اغلب مدننا وضياعنا الكبيرة ان تجلب اللحوم من خارج سورية وقد بلغ ثمن اقة اللحم في مدينتنا بيروت في غضون هذه السنة نحواً من خمسة عشر غرشاً او يزيد وهو ثمن لو بلغته اقة اللحم في لندن او باريس في غمرة الشتاء لضج اهلهما من مجاوزته المعتاد

انظروا الى انهارنا واعظمها العاصي شمالا والاردن جنوباً والليطاني ما بينهما فهذه الانهر الكثيرة المياه السريعة المجرى متروكة هملاً لا تسقي ارضاً ولا تدير آلات الا بعض مطاحن لطحن القمح . ولو ان هذه الانهر ينتفع بمياهها على ما ينبغي لكانت البلاد على بعض ضفافها تفوق بلاد النيل خصباً وكثرة حاصلات ولكانت كما يقال تفيض ذهباً وفضة . ولقد نقل عن استاذنا الدكتور جورج بوست انه قال اعطوني نهر العاصي ووادييه عن جانبيه والاردن ووادييه وانا املأ لكم سورية طعاماً وكسوة فلا يجوع رجل ولا يعرى ولد

ايها السادة سهولنا واسعة ومزارعنا خصيبة ومياهنا في بعض الجهات كثيرة ولكن اين غلاتنا ؟ اين الحبوب التي كان ينبغي ان تكون مركومة امثال التلال في مزارعنا وقرانا وتصدر في سفننا من ثغورنا الى مدن اوربا وبنادرها . ام اين اقطاننا التي تملأ بيوت زارعيها وتفيض فتملأ المستودعات الكبيرة والمخازن الواسعة في مدننا فتصدرها تجارنا وترد علينا اثمانها ذهباً وهاجاً

وا أسفاه ليس شيء من ذلك اما القطن فاظن الشبان ومن هم في اول سن الكهولة من زراعنا لا يعرفونه الا محشواً في فراش احدهم او لحافه اما كيف يزرع ويجنى ويحلج ويغزل ثم يحاك خاماً كان يضرب المثل بمتانته فذلك مما يسمعونه عن آبائهم او نقلا عن المتقدمين سناً فيما بينهم

واما الحبوب فيسوءني ان اقول على مسمع منكم ان كثيراً من مخازن الحنطة في مدينتنا ملآن منها لكن من غير سهول حمص وحماه والشام وحوران ولو ان الحنطة والدقيق يردان الينا من اخاليا فقط لهان الامر لان اخاليا بلاد عثمانية وقمحها يستهلك في ثغر عثماني ولكن سلوا العارفين فيخبروكم ان تجار الدقيق قد يستوردونه من روسيا وفرنسا بل من اميركا وانكلترا ويجدون له مشترين في بيروت وغيرها من المدن البحرية. وان لساني ليتلعثم في فمي حزناً واسفاً اذا ذكرت لكم ما اراه وترونه انتم كل يوم من مركبات تحمل الخبز الى كثير من البيوت من افران تجلب دقيقها من فرنسا او روسيا واحياناً من ايطاليا وفي كل يوم يزيد عدد الموزع عليهم من هذه الافران عن سابقه

دعونا الآن نلفت نظرنا عن حالتنا الزراعية الى حالتنا الصناعية . وبكل اسف اقول انها اشبه بحالتنا الزراعية ان لم اقل اسوأ منها عاقبة واسرع بنا الى الخراب والافلاس مصيراً . ادخلوا الى بيوتنا في المدن والضياع وانظروا ماذا ترون ؟ ترون اثاثنا وادوات طعامنا وشرابنا وانواع زينتنا اغلبها ان لم اقل كلها هي من المصنوعات الاجنبية ويا للاسف حتى الزيوت والمكبوسات من البصل والخيار واشباه ذلك ولا اقول المشروبات ترد الينا في قناني من البلاد الاجنبية ونفاخر بها لانها من صنع بلاد اجنبية . استوقفوا رجالنا وشبابنا برهة وانظروا في ملابسهم من اسفل القدم الى قمة الرأس فانكم ترون الاحذية من صناعة اجنبية والطرابيش كذلك وما بينهما من القميص الذي يباشر الجلد الى المنديل في الجيب كل ذلك من بلاد اجنبية وصناعة اجنبية . ويا للعجب ان القمصان وربط الرقاب ليستخف بها اذا كانت مصنوعة بايدي صناعنا ويفاخر بها لمجرد انها مصنوعة في لندن او باريس واعجب من ذلك وانه لعجب يستوجب البكاء ان بعضاً من شبابنا يباهون في انهم يخيطون اثوابهم في باريس او في لندن يرسلون اقدارهم الى الخاطة هناك فتأتيهم الاثواب طرداً في البوستة او مع احد الركاب لا يشعرون بسوء عاقبة ما يفعلون ولا يقطنون لفضيحة ما به يباهون

امور تضحك الجهال منها ويبكي من عواقبها الحكيم

استوقفوا المكاري استوقفوا الفلاح استوقفوا الفاعل من الفعلة الاعتياديين وانظروا ماذا قد يلبس كل واحد من هؤلاء لا ترونه يلبس العباءة ولا الخام البلدي ولا الدمقا التي يحوكها صناع بلادنا وكان يلبسها من قبل انما ترونه يلبس الصاكو المصنوعة في المانيا والدمقا المنسوجة على انوال منشستر والجلد المدبوغ في مدابغ فرنسا واميركا

ياشبان بلادنا ويا رجالها لماذا لا تلبس الانسجة التي حاكها صناعنا في بلادنا على

انوال دمشق وبيروت وحمص وحماه والزوق يا سيدات بلادنا لماذا لا تلبسن الحرائر المنسوجة على هذه الانوال وتباهين ـ كما تباهي الغربيات ـ في منسوجات نسجتها صناعنا وخاطتها الخاطة من بيننا — واني لا اخاطب الغنيات اللواتي يملكن هن او ازواجهن الالوف من الجنيهات فهؤلاء مستثنيات في كل بلاد فضلا عن انهن يعددن على الاصابع وانما اخاطب من سواهن من الجمهور الاعظم

ايها السادة والسيدات اني لاستحي من نفسي واستر عيني خجلا اذا ذكرت لكم ان رئيس مدرستنا هذه واعضاء عمدتها رأوا سوء الحالة التي ذكرتها لكم وحببوا الينا غير مرة ان نلبس ملابس بلادنا ومنسوجات بلادنا ليقتدي بنا تلامذتنا في ذلك فيخف عن عاتق آبائهم كثير من النفقات التي حنت ظهورهم فاعرضنا عن نصحهم وأدرنا اليهم ظهورنا

دعونا بعد نظر من موقف آخر يطل على حالتنا الادبية من جهة الاقتصاد في النفقات فلعل هنالك ما يختلف في المغزى عما رأيناه. هؤلاء شباننا يسرحون ويمرحون فانظروا اليهم عن آخرهم انظروا الى ابناء المدارس والمتاجر والصناعات المختلفة وقولوا لي ماذا ترون. انهم على اختلافهم في درجات الغنى وعلى اختلاف في المهنة التي يمتهنونها والمدرسة التي يتعلمون بها وعلى اختلافهم ايضاً في الاذواق والمواهب العقلية والادبية يكادون يتفقون في المباهاة بالانفاق على غير طائل ويتنافسون في الاسراف والتبذير — الا من عصمهم الله وقليل ما هم يركبون العربات لا لأنهم لا يستطيعون المشي ولا لأن في ركوبها زيادة في المسرة ويركبون الدراجات لا لانهم يريدون المحافظة على الوقت والاسراع في قطع المسافات الطويلة ليباشروا اشغالهم في اوقاتها باكراً بل يركبون هذه او تلك لان في ركوبها مظهراً من مظاهر الاسراف وايماء الى ما يذهبون اليه باطناً ويبدو في عرض احاديثهم ظاهراً من انهم لا يحفلون بالمال ولا يقدرونه بقدر كأن الرجولية والأسفاء تتطلب الاسراف او الحكمة تأمر بتبذير المال. اسأل المستخدمين من هؤلاء الشبان ماذا ابقيتم في جيوبكم من رواتبكم الشهرية او السنوية رأس مال لكم في المستقبل يجيبوك انهم لم يبقوا شيئاً بل كثيرون منهم ابقوا عليهم ديناً يماطلون به او يتدافعه عنهم آباؤهم. اسأل ابناء المدارس فيما انفقتم النفقات الكثيرة التي يئن آباؤكم من ثقلها وانتم تأكلون وتشربون من المدرسة وتنامون فيها فيسكتون او يتمتمون ويعتذرون بما لا محصل له

دعوا الشبان جانباً وانظروا الى البيوت الى الآباء والامهات واسألوا هؤلاء ماذا انفقوا في سنتهم الماضية ام اين حسابات تلك السنة ؟ ما اظن احداً من المسأولين يقدم

لك حساباً واكثرهم يتعللون بقولهم وما فائدة مسك الحسابات ايُقلّ ذلك من النفقات ام يزيد في الدخل ؟ وكأني ببعض المسؤولين يتململون من هذا السؤال وينظرون ذات اليمين وذات الشمال وبعضهم ينظرون بطرف خفي الى زوجته وكانا نعلم معنى هذه النظرة. وغاية ما نجده هنا ان الدخل والخرج متساويان ان لم يكن الثاني يزيد على الاول . فاذا سألت اولئك الذين تساوت نفقاتهم ودخلهم ماذا تؤملون في المستقبل قالوا لك الله كريم غداً يكبر اولادنا فينفقون علينا بدلا مما انفقنا عليهم في تعليمهم وتهذيبهم . واما اولئك الذين تزيد نفقاتهم على دخلهم فلا نعلم ايضاً جواباً نعتذر به عنهم . ايها السادة كأني اسمع احدكم يقول ما لك ولنا نحن الذين قيل فيهم بعرق جبينك تأكل خبزك فانه يكفي امثالنا ان يزجوا العيش تزجية وحسبهم ان يتساوى دخلهم ونفقاتهم فاسأل اصحاب الاملاك الواسعة والمقتنيات الكثيرة ودعنا نحن وشأنا . صدقت ايها القائل اقله بحسب الظاهر فانسألكم يا اصحاب الاملاك والعقارات الذين بيننا والغائبين عنا . ماذا وفرتم من دخلكم في السنة الماضية ؟ وبأسف اجيب بلسان اغلب هؤلاء ان نفقاتهم تستغرق دخلهم بل كثيرون منهم تبقى عليهم بقية دين من سنة الى اخرى فلا تلبث هذه البقايا ان تتكاثر سنة بعد سنة وهم لا يشعرون وكثيرون منهم لا ينتبهون من غفلتهم الا وقد اطاف بهم الافلاس واصبحوا في خطر من ان يفقدوا املاكهم ووجاهتهم معاً

وليس التجار بيننا خيراً بكثير ممن ذكرنا من الاغنياء من اصحاب الاملاك . هؤلاء الذين ينظر اليهم من بين جميع الطبقات ويتوقع منهم ان يحافظوا على رؤوس الاموال ويزيدوها من سنة الى اخرى ليمدوا بها البلاد ويزيدوا من مرافقها ومنافعها العامة — هؤلاء اذا فتشتم عن احوالهم ترون انهم يكادون يماثلون بقية الطبقات في تعريض رؤوس الاموال التي يتوقف عليها نجاح البلاد للخسارة والضياع . فان كثيرين من تجارنا ومن هم بمثابتهم ممن جمعوا شيئاً من رأس مال قد استغوتهم البورصة فالقموها فضلات ماجمعوا فاطبقت عليها اشداقها وتركتهم صفر الايدي يعضون اصابعهم ندماً وحسرة

قولوا لي ماذا اصاب بيروت في هذه السنين الاخيرة ؟ اما نقص رأس مالها نقصاً فاحشاً ضعضع اركان الامنية التجارية واوقف حركة الاعمال والمتاجر . لو شئت لظللت اعدد حتى الصباح مظاهر واحوالا لا تخفى على عاقل وكلها تشير الى سوء مصيرنا وتسرُّعنا افراداً واجمالا البلاد والعباد الى شفا الافلاس والخراب . وقد بدأت الحال تتكشف عما ذكرنا فاين الاطباء والصيادلة واصحاب الشهادات العلمية الذين يخرجون من مدارسنا سنوياً ؟ اين الصناع الاكفاء ؟ اين الفعلة الاقوياء ؟ اين اهل الفلاحة والزراعة

ممن يستغلون الاراضي ويقومون على استثمار خيراتها ؟ اين جميع هؤلاء ؟ وماذا اصاب اكثرهم ؟ انهم يهاجرون افواجاً افواجاً لم يتوقف تيار مهاجرتهم منذ اكثر من خمس وعشرين سنة الى الآن حتى بلغ فلَّهم اطراف المعمور وما اظن يقل عددهؤلاءالمهاجرين عن الاربعمئة الف نسمة ولا يزال الكثير ممن لم يهاجر يتشوف الى المهاجرة ويجعلها نصب عينيه

تأملوا ايها السادة واحكموا لانفسكم . بلاد واسعة من اخصب بلاد الله في المعمور ومن احسنها هواء وانقاها سماء وماء لا يزيد اهلها على المليونين ومع ذلك فقد هاجرها نحو من خمس سكانها وفي هؤلاء المهاجرين كثيرون من اطبائها وصيادلتها وكتبتها ومعلميها وصناعها من اقواهم بنية واحدهم قلباً وخاطراً . فلماذا هذه المهاجرة وما هو سببها ؟ انه ليس لذلك من سبب الا قلة رأس المال في البلاد عموماً وعوز اولئك الذين هاجروا خصوصاً . نعم ان لو كان بين يدي الافراد او في البلاد رأس مال ما هجرها الطبيب والصيدلي ولا الكاتب ولا المعلم . ومثل ذلك يقال في الصانع والعامل والفلاح والزارع ومن سواهم من اهل الحرف المختلفة . وما معنى الافلاس الا ذهاب رأس المال

كيف تتدارك امرنا ونبلغ امانينا

متى ايها السادة تصبح اعالي لبنان غابات ادواح وتلال سوريا وهضابها كروماً ناضرة وحدائق غناء يانعة ؟ متى تصبح سهولنا الواسعة ملاءة قطعاناً ومزارعنا الخصيبة تفيض حنطة وخيراً ؟ متى تستخدم مياه انهارنا الكبيرة في ري ما على ضفافها الخصيبة من التربة فتصبح أقطاننا تكفي حاجاتنا وتصدر منها الى البلاد الاجنبية جانباً كبيراً ايضاً ؟ بل متى يعمل لنا صناعنا وندفع اليهم اجور العمل لا الى غيرهم فيبقى مالنا في بلادنا لا يتسرب منها الى البلاد الاخرى اجرة لصناعها ويبقى صناعنا فارغي الايدي وعالة على البلاد لا يجدون عملا يعملونه . متى نرى كل ذلك ؟ لا بد ان يمر علينا زمن طويل قبل ان تتحقق لنا هذه الاماني . على انها لا تتحقق الا اذا أخذنا بالاسباب المقتضية لها . وهذا ما يهمنا السؤال عنه أعني كيف تتدارك أمرنا بحيث نبلغ أمانينا من جهة وندفع من جهة أخرى عن انفسنا وعن بلادنا شر ما نحن صائرون اليه من الافلاس والخراب

يقول البعض اعقدوا الشركات لجمع الاموال وانفاقها في غرس الغابات والكروم وفي تكثير الزرع والضرع واستخدام مياه الانهار في الري والصناعة . ونعم القول والرأي هذا . ولكن اين الاموال لذلك والبلاد في حالة الافلاس ؟ من منا في صندوقه مال مذخور

يستغني عنه زماناً طويلا ليودع في صناديق هذه الشركات؟ اجيبوني ايها المعلمون اجيبوني ايها الشبان المستخدمون. اجيبوني يا ارباب البيوت واصحاب الحرف والصناعات المختلفة. بل ما لنا ولهؤلاء اجيبوني ان استطعتم يا ارباب الاملاك الواسعة والعقارات الكثيرة وافتحوا صناديقكم لنرى ما فيها من الذهب الوهاج. بالمزيد الاسف انها فارغة ليس فيها دينار واحد يستغنى عنه مدة. مالنا ولهؤلاء ايضاً. هلموا بنا الى التجار والصيارف نستغيث بهم. يا تجارنا الكرام وصيارفنا الاغنياء افتحوا صناديقكم الحديدية لنرى مافيها من الاموال الاحتياطية. هل من احد منكم حاضر هنا يسمع كلامي؟ اني اشك بذلك. لكن هب ان كان منكم احد الآن او كان غيره ممن هو عارف بحقيقة الحال فماذا يجيب؟ ان البورصة ابتلعت من هذه الصناديق في السنين الاخيرة من مدينة بيروت فقط مايزيد في الراجح على الخمسمائة الف جنيه كان يمكن ان تستودع اساساً لمثل هذا المشروع وتزاد في المستقبل شيئاً فشيئاً فلم يبق الا مايكاد يكفي لحركة تجارتنا الاعتيادية البطيئة

يقول قائل اذن فلنستدن الاموال من الخارج من صيارفة اوربا وبيوت المال فيها. وا أسفاه ان هذا مايحاوله هؤلاء وهذا ما يسعون اليه جهدهم. وان تم لا سمح الله اصبحنا غرباء في البلاد واصبحت السهول والجبال لهؤلاء دوننا وخير لنا ان تبقى البلاد قرعاء جرداء وعلى شر مما هي عليه وهي لنا من ان تصير الى ما نحلم به وهي لاولئك الاقوام. وكفى عبرة بما وقع لغيرنا وبعض ما وقع لنا

قالت الضفدع قولا فسرته الحكماء
في فمي ماء وهل ينطق من في فيه ماء

ايها السادة اني سمعت ما اكاد اظنه حلماً لا حقيقة وهو ان بعض اغنيائنا في مصر والشام قد عقدوا شركة مالية رأس مالها منهم وفي نيتهم ان يستخدموا هذا المال في احياء الموات من الاراضين وفي زراعة القطن واستثماره على الاخص فان كان ماسمعته صحيحاً — — حقق الله الخبر — ففيه مايحيي لنا شيئاً من الامل ونتوقع معه حسن العاقبة في المستقبل

ومع انا على يقين ان الله اذا اراد امراً هيأ له اسبابه فليس من الرأي ان نسترسل الى ما لم يتحقق بعد من الاماني ونترك ما في مكنتنا اتخاذه من الوسائل والاسباب التي تقضي بها علينا الحكمة والرأي مما يكون ردفاً لهذه الشركة ودعامة لها تدعمها في حينها.

يقول آخرون هذبوا فتياتنا وفتياتنا فان على تهذيبهم مدار النجاح والفلاح وفيه اساس لحسن الحال والمآل في العاجل وضمانة يتلافى بها ما يهددنا من الافلاس في المستقبل. ونعم هذا القول قولاً ما اشوقه في الظاهر وارواه واسده قبل التحقيق وامضاه وكان علي

من حيث اني معلم ان اختم على صحته من غير تردد فيه او اهلل به على رؤوس الملأ من غير تجريح له . ولكن ان كان القصد بالتهذيب مجرد التعليم على ما جرينا عليه الى الآن فما اكثر الاقوال الشائقة لكن على غير جدوى واروى الآراء المموهة لكن من غير محصل ولا فائدة ! هذه مدارسنا قد ملأت المدن والقرى ومنذ ثلاثين سنة الى الآن وعددها يتزايد وعدد الطالبين والطالبات يتكاثر فماذا نفع البلاد تعدد المدارس او ماذا اجدى عليها تكاثر عدد الطلبة ؟ انّ عندنا الآن من المدارس الكلية والعالية ما لو نسبناه الى عدد الانفس لاربى على ما عند الانكليز او الفرنسويين . ومع ذلك فالبلاد اليوم اقرب الى الافلاس مما كانت منذ عشرين او ثلاثين سنة وستكون بعد عشر سنين اقل رأس مال مما هي عليه الآن ان لم تتدارك امرنا . قولوا لي ماذا نفع البلاد كثرة التلامذة وما هي الزيادة التي زادوها الى رأس مالها ؟ بل كيف ينفعون البلاد وهم يهاجرونها الواحد بعد الآخر وقد بلغ فلاّحهم اطراف المعمور من شمال اميركا الشمالية الى جنوبي اميركا الجنوبيّة الى بلاد الفلبين وقلب السودان وبلاد الترنسفال ورأس الرجا الصالح ولعل بعضهم الآن في نواحي الصين او في قلب بلاد اليابان

والمتأمل يرى ان المهاجرة كانت تتزايد على نسبة تزايد عدد المتعلمين والمتعلمات وليس لذلك من سبب الا ان التهذيب الذي تهذبه يزيد من افلاس البلاد حتى اذا ما أتمّ الطالب ايامه المدرسية واخذ شهادته العلمية او الطبية او الصيدلية او التجارية لا يرى معه شيئاً من رأس مال يستند اليه ولا هناك في البلاد رأس مال يحمل علمه والنتيجة ظاهرة انه لا يجد بداً من المهاجرة فيهاجر

فان قيل ان المهاجرة طبيعية وقد تكون دليلا على تقدم البلاد قلت نعم لكن في غير الحالة التي نحن فيها اما في حالتنا نحن فلا لان سكان سوريا لم يزد عددهم على ما تتحمله البلاد بل هي تتحمل أضعاف أضعاف الاهلين في الوقت الحاضر فالمهاجرة اذن غير طبيعية وهي دليل واضح على قلة رأس المال بين ايدي الافراد الذين يهاجرون وفي البلاد عموماً

أيها الطالب العزيز الذي تباهي في الاسراف وكثرة النفقات حتى تستنزف على تعلّمك آخر غرش في جيب أبيك وتتركه في آخر سنيك المدرسية صفر اليدين لا مال صامتاً ولا ناطقاً لديه بل كثيراً ما تتركه وقد رهن بيت سكنه نفقة عليك وتحملا لطالب بذخك واسرافك قل لي ياهذا ماذا يبقى أمامك عند نهاية أيامك المدرسية الا المهاجرة الى حيث ترى نفسك مضطراً ان تصرف معظم ما بقي من نشاطك وقوة شبابك لتفك ما رهنه أبوك

على تعليمك ثم بعد ذلك تنفق نفسك وقواك في إعداد معدات لبيتك حتى اذا صرت صاحب بيت وتوجهت خواطرك لاعالة فتياتك وفتياتك رأيت انك لم تدخر شيئاً ولا تستطيع ان تدخر بَعْدُ ويعود الدور بين أولادك وبينك على مثل ما كان بينك وبين أبيك . وإذا كانت الحال على هذه الصورة فهيهات هيهات ان ترى بلادك الا على ما هي عليه الآن. وهيهات هيهات ان يكون في طوقك ان تزيد على حالتها الحاضرة ما تصبح معه على حلم ان تصير اليه. وكل آمالك بل أحلامك الآن تموت عند ما تستيقظ في أيام كهولتك لانك لاترى بين يديك رأس مال تستغني عنه يستخدم في ترقية شؤونها وزيادة قوتها وفلاحها . وبالاجمال فالتهذيب الحالي لم يبلغ ولا يبلغ بنا المقصود ولاهو مما يركن اليه في تلافي أمرنا؟

ايها السادة . اذا أردنا ازالة الداء فلابد من معالجة أسبابه الرئيسية وإزالتها أولاً . وليست هذه الاسباب الجهل على ما ارى ولا قلة الشبان المتهذبين على ما بيّنا ولا هي ايضاً كسل الاهالي وتراخي أيديهم عن العمل لأن المتأمل الخبير يعلم أن الصانع اليوم أنشط من صانعنا بالامس وأكثر منه إكباباً ومثابرة على العمل . وكذلك فاعلنا وزارعنا وبستانينا ومستخدمنا وتاجرنا وكاتبنا ومحاسبنا ومعلمنا فان جميع هؤلاء يشتغلون ويجتهدون في العمل فوق ما كانوا عليه في الماضي

وكذلك ليس السبب أيضاً عدم وجود الشركات العمومية لان عدم وجود هذه ليس سبباً في الافلاس أو تسارع أفراد الامة اليه بل هو نتيجة عنه . فان من الحقيقة التي لا تنكر عند ذوي البصيرة ان عدم وجود الشركات العمومية مسبب من عدم وجود رأس المال اللازم لها بين ايدي الافراد لا سبب لنقص رؤوس الاموال هذه . نعم لو وجدت هذه لزاد بها رأس المال ولكنها لا توجد اولاً إلا بعد ان يوجد رأس مال بين أيدي الافراد غير رأس المال الذي لابد لهم منه لادارة حركة أعمالهم الاعتيادية . وأزيد أيضاً من غير ان أنسب الى الاطراء والتملق للهيئة الحاكمة ان السبب فيما يهددنا من التسارع الى الافلاس ليس هو عدم الامن ولا هو من اختلال إدارة الاحكام واعمال العمال الذين تقصر إجراءاتهم عن ان تأتي مطابقة للدستور لان الامن الآن هو فوق ما كان عليه بكثير منذ خمس وعشرين سنة ودليله اتساع دائرة الزراعة والصناعة والتجارة فقد زاد المزروع في البلاد وزادت حاصلاتها وتجارتها وصناعتها الى ضعف ما كانت عليه قبلا ان لم يكن الى أكثر من ذلك . ويستحيل ان تكون هذه الزيادة ما لم يكن الامن قد زاد واما تقصير العمال فأراه يكاد يكون مسبباً عن نقص رأس المال في البلاد لا سبباً له . نعم لا أنكر انه كان ضرراً للبلاد لو لم يوجد مثل هذا التقصير وانه سبب أيضاً في قلة

رأس المال لكنه ليس سبباً أولياً بل سبباً ثانويًّا ويمكن إزالته شيئاً فشيئاً مع زوال السبب الاولي وفقاً لما تقتضيه ضرورة الوجود

والخلاصة ان كثيراً مما يذكر انه سبب لتأخرنا ولتسارعنا الى الافلاس اما ان لا يكون سبباً أصلا او يكون سبباً ثانوياً لا أولياً وما لم نعلم السبب الاولى ونسعى في إزالته فلا يرجى لنا نجاة مما نحن صائرون اليه .وعندي ان السبب الاوليّ انما هو إسرافنا وتبذيرنا أولا من حيث نحن أفراد وثانياً من حيث نحن أمة . واليكم بيان ذلك ولو بمراجعة ما المعنا اليه سابقاً ولنبدأ باسرافنا من حيث نحن أفراد

رأينا الحاجة الى العلم فكثر عدد المدارس عندنا ولكننا اسرفنا في النفقات على تعليم اولادنا لاننا لم نبق لهم رأس مال يستعينون به بعد خروجهم من المدرسة بل لم نبق لنا أعني الاباء رأس مال نستعين به على تحصيل مقتضيات العيش لا مالاً في الجيوب ولا أملاكا تستثمر حتى باع البعض في سبيل ذلك او رهنوا بيوت سكنهم وأى إسراف فوق هذا الاسراف. كثرت أجور صُنّاعنا فصارت ضعف ما كانت عليه أولا ولكن لم يجد علينا ذلك لان صناعنا اسرفوا في نفقاتهم على طعامهم وشرابهم وكسوتهم حتى أصبحت هذه اما تعادل أجورهم او تزيد عليها . فترى الشاب منهم ينفق جزافاً على طعامه ولباسه ودخانه وشم هوائه كانما هو من اصحاب الاموال الكبيرة فيأتي آخر الشهر او آخر السنة فاذا هو لم يدخر في كل سنته شيئاً رأس مال يستعين به على تحسين حاله بل كثيرون منهم يمقون عليهم ديوناً يماطلون بها

وليس الشاب المستخدم بارقى حالا من الشاب الصانع لانك ترى احد هؤلاء في لباسه ونفقات طعامه وجيبه وترى مخدومه فلا يظهر لك من نفقاتها ايها الخادم وايها المخدوم بل قد تظن الخادم مخدوماً احياناً . واذا حادثت احد هؤلاء فذكر لك ماينفق على طعامه وشرابه وكسوته ونوع الدخان الذي يدخنه ومقدار ما يدخنه في اليوم او ذكر لك ما انفق على شم هوائه مع اصحابه (وقد لايكون مبالغاً) ظننته يأخذ من الاجر ثلاث مرات او اربع مرات ما يأخذه حقيقة . وما هي نتيجة كل ذلك ؟ انه يقضي ايام شبابه مفلسا وربما يموت كذلك . واما ابناء المدارس واسرافهم في النفقات على لباسهم وجيوبهم فامره اشهر من ان يذكر ولقد اصبحوا مضرب مثل في الاسراف والتبذير وهم لا يفطنون

وعلى ذكر الطلبة اراني مضطراً الى ذكر المعلمين اي خدّمة العلم ومربيّ العقول ومهذبي الاخلاق ومثال الحكمة والروية ولكن كيف نجد هؤلاء الافاضل أقل اسرافاً

هم من الطلبة؟ انا لا استطيع ان اجيب بالايجاب بل اقول بكل اسف انهم — وان كنت لاتجد في المئة منهم عشرة ينام احدهم مطمئنا في انه اذا توقف عن العمل شهراً واحداً لايحتاج الى مساعدة الآخرين — هم مع ذلك مسرفون يتطلعون الى التأنق في الملابس والمآكل والمظاهرات الخارجية كان احدهم رب الالوف من الجنيهات وتظهر امرأته واولاده مثل مظهره ان لم يزيدوا عليه وندر ان يموت احدهم غير فقير ويترك اولاده غير عالة

دعونا من المعلمين والطلبة واصحاب الحرف والمستخدمين بل دعونا من الطبقة الوسطى من اهل الصون والستر عن آخرها . مساكين جميع هؤلاء فانهم يبدأون بالحياة ولا رأس مال معهم ويموتون وأكثرهم لا يتركون شيئاً الا الدين وان كان جزئياً واولاداً في الغالب عالة على ذوي قرباهم . ولنأت الى اصحاب الاملاك والعقارات فان هؤلاء زادت املاكهم وعقاراتهم وزادت مداخيلهم ايضاً ولكن ماذا نفعت البلاد من تلك الزيادة وهم في نهاية شوطهم نراهم اصبحوا وقد اثقلتهم الديون حتى كادت تستغرق كل املاكهم ومقتنياتهم وما لذلك من سبب الا الاسراف في النفقات والخروج عن خطة القطرة الى التقليد في كل شيء تقريباً ومباراة اصحاب الملايين في اوربا واميركا

بقي علينا التجار والصيارف وهم من تتسرب اليهم فضلات اموال البلاد او ما بقي من هذه الفضلات التي انفقها اهلها جزافاً على كل شيء اجنبي ماذا صار لهذه الاموال التي هي عمدة نجاح البلاد وعلى نسبة الموجود منها يكون حالها من القوة والضعف والتقدم والتأخر ؟ اباقية هي على ما كان ينبغي ان تكون ؟ وا أسفاه ان ما سلم من اسراف المتوسطين واصحاب الاملاك والعقارات لم يسلم من اسراف التجار والصيارفة الذين استغوتهم البورصة فاضاعوا فيها اغلب ما كان ينبغي ان يدخر في البلاد ويستخدم في انماء الزراعة والصناعة . هذا هو داؤنا اي الاسراف وهو السبب الاصلي في مسارعتنا الى الافلاس والخراب ونحن افراد

ولو نظرتم الينا من حيث اننا مجتمع وامة لرأيتم الاسراف قد بلغ فينا مبلغه لاننا كأمة قد ماتت نفوسنا واعتبارنا لنفوسنا فاصبحنا نحتقر كل ما هو وطني وتصرف عنه ونعظم ما هو اجنبي ونقبل عليه وقد اسرفنا في الامرين كل الاسراف حتى امتنا صناعة البلاد والجأنا الصانع اما الى المهاجرة واما الى الخمول والموت فقراً . وشاهدي قريب فأني اسألكم رجالاً ونساء اتلبسون ايها الرجال من منسوجات الشام وحمص وحماه والزوق ام تلبسن ايها السيدات من حرائر البلاد المنسوجة على انوال بيروت والشام وطرابلس

والاستانة ؟ ما اظن احداً منا يجيب بالايجاب بل بدأ كثير من متأنقينا على ما المعنا ان يأمروا فتخاط أحذيتهم واثوابهم في باريس ولندن وغيرهما من المدن الغربية استكباراً لصناعة اولئك واحتقاراً لصناعتنا مع ان الفرق هنا مما لا يعتد به بين الصناعتين . وهذا منتهى الاسراف ومنتهى الصغار أيضاً وضعف النفس في الامة

ايها السادة والسيدات داؤنا الاسراف والتقليد الفارغ وهما السبب الاولى في تسارعنا الى الافلاس والخراب ولا يوقفنا عما نحن مسرعون اليه الا الاقتصاد وترك التشبه والتقليد فان لم تقتصد ايها الطالب في نفقاتك بقدر ما تستطيع أفنيت رأس مال أبيك وتركته لا يستطيع ان يأتي بعمل بعد ذلك للقيام بنفقاته ونفقات بقية افراد عائلته وتركت نفسك بالضرورة ايضاً ولا خيرة لك الا المهاجرة والاغتراب حيث تصرف قوى عقلك ونشاط شبابك في غير بلادك وتخدم غير نفسك واهلك وانت لا تدري

ان لم تقتصد ايها المستخدم والصانع في لباسك وطعامك ونفقات جيبك ليتأتى لك ان تدخر في كل سنة شيئاً تعده رأس مال لمستقبلك بقيت طول عمرك مستخدماً وصانعاً واورثت لبنيك الفاقة والمذلة او اضطررت الى الاغتراب والمهاجرة . وهيهات ان تكون هناك أكثر من خادم او صانع تخدم غير ذويك وتستصنع لغير بلادك وأهلك

ان لم تقتصدوا يا أصحاب البيوت في نفقاتكم من صغيرها الى كبيرها بقيتم على ما انتم عليه تعللون النفس بالاماني والاحلام الفارغة او تشكون الدهر وانتم تزجون العيش تزجية . واذا افضى احدكم لا سمح الله الى المذلة والفقر فلا يلومنّ الا أنفسنا على سوء تدبيرنا وعدم اقتصادنا

ان لم تقتصدوا يا أصحاب الاملاك والعقارات الكبيرة فلا تأمنوا مغبة الدين وان تنتقل أملاككم وعقاراتكم الى ايد غير ايديكم او غير ايدي بنيكم ولا تكون مع الايام الا يداً اجنبية اقدر على ادارة الاملاك واعرف بسبل الاقتصاد والارض لله يرثها النشيطون المقتصدون

ان لم تقتصدوا يا تجارنا وصيارفنا . ان لم تتوقوا أشراك البورصة وتهربوا منها هربكم من الافعى جررتم أنفسكم الى الافلاس العاجل وجررتم البلاد باسرها معكم الى الخراب والدمار . والخلاصة ان داءنا الاسراف ولا ينجينا من الافلاس والخراب المتسارعين اليه الا الاقتصاد وقد بذلت لكم نصحي وما أنصح الا نفسي وأهلي والسلام

انتقاد فتاة مصر

قبل ان ابدأ بانتقاد هذه الرواية البديعة في بابها اقول اني كنت اقرأ فتاة مصر كما كنت اقرأ بقية مقالات المقتطف الرائعة واعيد النظر فيها كما اعيد النظر في تلك فتأخذني نشوة من حسن اسلوبها وما اودعهُ الكاتب في مطاويها من افكاره العمرانية وانتقاداته البديعة الفلسفية إن في ما يتعلق بأسباب الحرب الروسية العمرانية او في ما يتعلق بأحوال مصر الاجتماعية والزراعية او في ما يتعلق بالماليين وتأثيرهم في هيئة المدنية الحاضرة

والحق يقال اني كثيراً ما كنت اقدم قراءتها على قراءة بقية مقالات المقتطف لا لمجرد الفكاهة واللذة المرادة من كتابة اغلب الروايات بل لما كنت ارى فيها من الحقائق العمرانية والسياسية وما ترمي اليه من اصلاح الاخلاق والعادات والتعريض ببعض ما اضرَّ بنا من الاقبال على ما كان يشرف بنا على شفا جرف من الافلاس والخراب واشتدت غوايتنا به حتى عم او كاد يعم غنينا وفقيرنا عالمنا وجاهلنا تاجرنا وصانعنا واعني بذلك مضاربات البورصة والتقحم فيها على الخراب ونحن لا نشعر

واقول ايضاً اني بعد ان قرأتها اجزاء وقت صدورها عدت فقرأتها مجلدة مرتين فما زادتني قراءتها الا اعجاباً بها ويقيني انها من خير ما الف لتهذيب شبابنا وانها اجدر كتاب حتى الآن يحسنُ بنا ان نضعه بين ايدي شبابنا وطلبة مدارسنا يقرأونه اولاً لما فيها من حسن الاسلوب ودقة التعبير مضافاً الى ذلك فصاحة الالفاظ وبلاغة التركيب وسلامة الذوق . وثانياً لما فيها من المرامي والمقاصد الحكميَّة والفلسفية العمرانية ولاسيما ما ينبغي تنبيه اذهان الشبان اليه من قوة المال والماليين وانه لا تقوى امة او تصير شيئاً مذكوراً ما لم يجتمع عندها بكد افرادها واقتصادهم رأس مال يعدونه لطوارق الحدثان يغالبون به بقية الامم ويزاحمونهم على موارد التجارة والانتفاع وينازعونهم بكثرة السطوة والوجاهة

فلا مجد في الدنيا لمن قلَّ ماله ولا مال في الدنيا لمن قلَّ مجده

وهنا اشكر لاستاذي الدكتور صروف واضع هذه الرواية لانه اجاب ملتمسي في طبعها على حدة لينتفع بها التلامذة خصوصاً وانها وفت بالغاية التي من اجلها التمست منهُ طبعها وحدها وهي الآن كتاب مطالعة لاكثر من ستين بل سبعين طالباً يتمرنون بمطالعتها على تطبيق قواعد النحو على ما يقرأونه ويتحدَّون اساليبها في الكتابة والانشاء وقد وفت بهذين الغرضين فضلاً عما يجده فيها الطلبة من الفوائد العمرانية والاخلاقية المقصودة رأساً من تأليفها

ولنرجع الآن بعد هذه الديباجة او التمهيد الى غرضنا الاصلي من الانتقاد عموماً وانتقاد هذه الرواية خصوصاً

أنواع الانتقاد

(اولاً الانتقاد النحوي)

واكثر كتابنا اذا انتقدوا وجهوا همهم الى هذا النوع من الانتقاد فاذا رأوا عرضاً المرفوع منصوباً او مجروراً او بالعكس اكثروا الصياح والجلبة على الكاتب فرموه بالجهل والفهاهة واكثروا من ذلك يهولون بعلمهم وفضلهم واتخذوا ذلك ذريعة للتنقُّص من الكاتب والغضّ من كرامته والانحاء على علمه وفضله تهكماً واستخفافاً واولى بالمنتقدين منا ان يُقلعوا عن هذا الانتقاد التافه فانه ان دل على علم من جهةٍ فهو دليل على جهل من جهة اخرى . وسببه ان اكثر ما يقع من هذه الاغلاط انما يقع عن تسرع الكاتب وقلما يخل مع ذلك بفصاحة او بلاغة لان المعنى يكون ظاهرًا ظهور الصبح حتى قلما يفطن له احد الا المتحري له بل ربما كان ما عُدَّ غلطاً لا يُعدُّ كذلك الا على مذهب مخصوص والعاقل يعلم ان علامات الاعراب في اللغة انما هي من قبيل الاناقة والمواضعة لا من قبيل الجوهر والحقيقة فمن ثمَّ قد لا يُعدُّ الاخلال بها اخلالاً يقضي على المخلّ بالجهل وعلى الناقد بالفضل بل كثيراً ما يكون الامر على عكس ذلك لان لسان حال الناقد المحتفل بهذه الاغلاط المعطمط لها يشهد عليه ولا سيما اذا جرى على مذهب مخصوص انهُ حسب العرض جوهراً والآلة غاية وهذا هو الجهل بعينه . هذا ولو كان الاعراب امراً جوهرياً في الخطاب والكتاب لما سقط من العبرانية والسريانية خطاباً وكتابة وهما اختا العربية او اقله لما سقط معظمهُ من على السنتنا في كل البلاد العربية حتى من على السنة المشتغلين بالنحو لاشغل لهم سواه وقد فرغوا كل اوقاتهم لدرسه وتدريسه لا يعرفون سواه ولا يحفلون بغيره من بقية انواع العلوم

ولا يؤخذ من قولي هذا أن النحو علم لا ينفع وجهالة لا تضرُّ حاشا لي ان أقول ذلك وأنا من معلمي النحو والمشتغلين بدرسه وتدريسه منذ عشرين سنة ونيف بل أنا ممن يعتقدون ان علم النحو العربي قد يكون بفضل استاذٍ من أفضل انواع العلوم التي تدرس في المدارس العالية لتقوية قوى العقل في الشبان ولا سيما قوى الفهم والقياس والاستنتاج. وهو من هذا القبيل لو وُضع في كفة ميزان ووُضع في الكفة الاخرى علمان آخران — أي علمين كانا — المنطق والفلسفة — الجبر والهندسة — الكيميا والفلسفة الطبيعية

— الحيوان والنبات — التاريخ واللغة الخ — لرجحهما فهبطت كفته بسرعة الى الارض وشالت الاخرى الى السحاب. ولكني مع اعتقادي هذا لا أرى انتقاداً تافهاً على كتاب علم أو فلسفة اتفه من الاقتصار على انتقاد هذه الحركات والسكنات الاعرابية أوالتهويل بها كأن العلم كله في تحريها والجهل كله في الغفلة أحياناً عنها .أقول ما اقوله وانا أحمدالله ان فتاة مصر لا مجال فيها لهذا الانتقاد التافه فاني لم ألحظ أغلاطاً من هذا القبيل الاّ أن تكون غلطة مطبعية ظاهرة للعيون ظهور الشمس في رائعة النهار حاشا عين المتعنت المتحذلق في النحو ولا أذكر اني مررت على غلطة من هذا القبيل أو ما يضارعها الا في صفحة ٢٦ آخر الوجه فقد جاء فيه هناك — أنا لا أطيق أتُلْفي نفسك في أيدي هؤلاء اللصوص — والمرجح ان الكاتب أراد ان تُلقي نفسك — فسقطت النون في هذا الموضع غفلة من صفيف الاحرف أو تسرُّعاً من الكاتب ولم يشعر بذلك كما يحدث كثيراً مع كل كاتب على ما يُعلمُ بالاختبار (١)

(ثانياً الانتقاد البياني)

وهو أعلى شأناً واكثر فائدة من الانتقاد على مرفوع او منصوب أو مجزوم أومبني على السكون او احدى الحركات . ومداره على التعقيد والالتباس فحيثما وُجد هذان فهناك محلٌّ للنقد واما حيث البيان وظهور المراد على اتمهما في المفردات والتراكيب فلا موضع له وان تحل له موضع مع خلو الكلام عما ذكرنا من الالتباس والتعقيد فهنالك الخبط والجهل الفاضح (وان كانا لا يُعلمان عند كل الناس) وليس مرادي الآن ان أتغلغل في هذا الموضوع من النقد وبيان جميع مايدخل تحته فانه بحر واسع لاساحل له.واكثر الكتب الموضوعة في فن البيان مما يُطبق على موافقته لضوابطها او مخالفته لها غير مجرح فيها ولا ترجع ضوابطها الى اصول كلية لا مجال للاعتراض عليها ولذلك كان الذوق السليم أولى أن يحكم غالباً دونها وهو اذا رجعنا اليه في انتقاد فتاة مصر رأيناها لا غبار عليها الا في مواضع قليلة جداً واكثرها من قبيل استعمال الفصيح مع وجود الافصح او ما يقارب ذلك . ومن هذه المواضع ما جاء في وجه ٤٠ ـ وانفضّ رأيهم على ان الخواجه لاقي يدبر الامر بحكمته ـ أي وانفضّ مجلسهم فان الانفضاض في الاصل للمجلس لكن لحصول الرأي في ذلك المجلس نسب الانفضاض اليه . وهو من قبيل اقامة الحالّ في

---

(١) (المقتطف) لقد تحيرنا انطاق الناس بما ينطقون به عادة فكلمة « انا لا اطيق » مقولة على هذه الصورة مقطوعة اي انا لا اطيق ما تفعل او ما يفعل والجملة بعدها استئنافية او ابتدائية ولو وضعت نقطة بعد كلمة اطيق لكان ذلك ادل على المراد

المكان مقام المكان ويمثلون له بقولهم ـ ونادى أصحابُ الجنةِ أصحابَ النار ـ أي جهنم لكن لما كانت الملابسة بين الرأي والمجلس اكثر بُعداً مما هي بين النار وجهنم في الآية التي يستشهد بها كانت لذلك عبارة فتاة مصر من قبيل استعمال الصحيح الفصيح دون الافصح . ومما يجري هذا المجرى ما جاء في صفحة ٤٣ حيث يقول — فكأنها أموال تقترضها الحكومة وتعطيها للاهالي رباً معتدل لا يستطيعون الاقتراض بهم — وكان الاولى على ما ارى لو قال — لا يستطيعون هم ان يقترضوها رباً مثله او رباً من مثله. وكذلك ما جاء في وجه ٥٦ — وحليمة اخت حليم بك من اجمل البنات التي وقعت عليهن عيني . ووجه ١٠٧ — كلاّ ولكنّ هنري نفسه اخذ مكتوبها وكتب لي حاشية فيه يقول فيها وتركيب العبارتين فصيح لا غبار عليه الا ان حسن الرصف يقضي بتأخير المجرور عن (عيني) في العبارة الاولى وتقديمه على (حاشية) في الثانية . ومع ذلك فالفرق بين العبارتين على اصلهما وبينهما على ما صارتا اليه زهيد جداً ولا سيما في العبارة الاولى. وربما وجدت مواضع اخرى من قبيل العبارتين اللتين ذكرناهما لم انتبه اليها ولكنها قليلة جداً وبالاجمال أقول ان الذوق السليم يشهد ان «فتاة مصر» جاءت من اولها الى آخرها كأنها النيل المبارك يجري مدلا بعظمته وجلالة قدره بين الجزيرة والجيزة في جوار القاهرة . واليك بعض شذرات منها

هنري — اذاً أنت تفكرين فيهم اما أنا فاني باذل جهدي لكي أنسى ما مضى فلا أستطيع ويخطر ببالي احياناً ان اعود من السويس ولكن السفينة تقوم صباح الاثنين ولا تقوم سفينة بعدها الى اليابان توًّا الا بعد اسبوعين ومهمتي تقضي عليّ بالذهاب في هذه السفينة وقد ضاقت بي الحيل ولا اعلم كيف اعمل . أيجوز ان اضحي بعواطفي كلها لاجل عمل لا ينالني منه ربح مادي ولا ادبي . لماذا أذهب الى بلاد اليابان ؟ لخدمة الماليين لكي تكثر اموالهم اما جمهور الاهالي الفلاحين والمعدنين والصناع وهم التسعة الاعشار فلا يستفيدون شيئاً . والماليون ايضاً لا يستفيدون لان زيادة المال لا تزيد الراحة بل تزيد التعب. لورد بنشيلد تقدر ثروته بأكثر من ثلاثين مليوناً من الجنيهات ودخله اليومي بأكثر من ثلاثة آلاف جنيه وقد سمعت منه ان ما ينفقه على نفسه في مأكل ومشرب وملبس لا يزيد على ثلاثة جنيهات في اليوم يأكل في الصباح بيضة ويشرب كاساً من القهوة واللبن ويأكل الظهر قطعة من السمك وقطعة من اللحم وقليلاً من الخبز والخضر والفاكهة ونحو ذلك في المساء وان زاد بُلي بالتخمة ويلبس مثل ابسط الناس وما هو الا وكيل على امواله يهتم نهاراً وليلا بتشغيلها وتثميرها فلو بلغنا مبلغه من الثروة لزدنا طمعاً وتعباً . انظري

كيف نحن الآن مسخران لغيرنا. كيف دست قلبي وعواطفي وخرجت من بيت واصف بك وابنه على فراش الموت ولا امل ان اراه بعد الآن وهيئة تبكي وتنوح ويكاد قلبها ينفطر حزناً عليه. تصوري نفسك مكانها وان مركبة الترامواي داستني فقتلتني او كادت ولك حبيب او صديق لا بد له من ان يتركك في تلك الساعة تصوري نفسك مكانها

فاغرورقت عينا دوريا بالدموع وقالت له اني اعرف ما يختلج في فؤادك وأؤكد لك ياهنري اني احب هذه الفتاة كما تحبها انت واني آسفة جداً لفراقها على هذه الصورة ويكاد قلبي ينفطر عليها وعلى امها ولكن الواجب أولى بالاتباع ونحن مرتبطان بهذا السفر ولا مناص لنا منه واذا بقينا في مصر لا نقدم ولا نؤخر ويقيني ان امين بك يقوم من هذه السقطة واظن اننا نجد تلغرافاً منهم في السويس يطمئننا عنه والا فلا بد لنا من ان نرسل تلغرافاً نسأل به عن صحته (فتاة مصر وجه ٥٢ — ٥٣)

اقرأ ايضاً وجه ٥٧ و٥٨ الى آخر السطر الثامن منه . ووجه ٦٦ و٦٧ الى آخر السطر السابع منهُ . ووجه ٧٠ الى السطر الخامس قبل الاخير . ووجه ١١٤ الى آخر كلام لادي برون وجه ١١٦

ولو اردت ان اشير الى كل كلام انيق معجب لبلاغته او للحكمة المودعة فيه او للحقائق العمرانية الوافعة فعلا ونحن في غفلة عنها لأشرت الى اكثر من ثلثي هذه الرواية البديعة ولا اراني مبالغاً

(ثالثاً الانتقاد اللغوي)

وكثيرون من منتقدينا يأتون في هذا النوع من الانتقاد بالمبكيات المضحكات ولا احاشي جلّة من اكابر علمائنا وكتابنا معاً . والغريب ان بعضهم يكاد ينكر القياس فلا يجيز في الاستعمال الا ما نص عليه في كتب امهات اللغة فان لم ينص الصحاح او الفيروز ابادي او لسان العرب على احتار مثلا يؤاخذون من يستعملها ولو تابع في استعمالها كثيرين من اكابر الشعراء والفقهاء . وكاد العلامة السيد محمد رشيد رضا صاحب مجلة المنار المشهورة يهوي في مهواة هؤلاء الاقوام فانه على سعة علمه لم يرقه على ما يظهر استعمال بعضهم « احتار » مع معرفته ان قد استعملها قبله الامام ابن الفارض المشهور . وبعض غيره من اكابر الفقهاء كصاحب الكتاب المسمى بردّ المحتار على الدُّر المختار . وكنت أعجب من تضييق هاته الفئة كل هذا التضييق وما الذي يعتمدونه في الاخذ بهذه الخطة التي اخذت بخناق الكتبة والمؤلفين وخالفت مبدأ لغة هي من اشهر لغات العالم باعتمادها على القياس وبمناسبة اوضاعها له في هذه الحركات والسكنات الاعرابية الى ان وقفت على ما كتبه العلامة

الفيلسوف الامام الغزالي في الرد على المشبّهة والحشوية في كتابه إلجام العوام فترجح لي ان كلام الامام هناك استهوى القوم فقاسوا عليه لكن حيث لا يصح القياس لوجود الفارق فأدى قياسهم لسوء الطالع الى ما كاد يبطل القياس في الفاظ اللغة حيث تمس الحاجة الى القياس وحيث لا مانع يمنع منهُ عقلا او نقلا وبيان ذلك

انهُ ورد في الكتاب والسنة الفاظ في حق الباري سبحانه وتعالى توهم الجسمية كاليد والعين والاستواء والنزول وغير ذلك مما اخذها الحشوية دليلا على التجسيم واستغووا بها العامة وبعض الخاصة بزعمهم ان ذلك مذهب السلف فتصدى الامام للرد عليهم واليك بعض كلامهِ قال : وحقيقة مذهب السلف ان كل من بلغه حديث من هذه الاحاديث من عوام الخلق يجب عليه فيهِ سبعة امور (١) التقديس (٢) التصديق (٣) الاعتراف بالعجز (٤) السكوت (٥) الامساك (٦) الكف (٧) التسليم . ثم فسر الامساك بما نصه بالحرف الواحد قال :واما الامساك فان لا يتصرف في تلك الالفاظ بالتصريف والتبديل بلغة أخرى والزيادة فيهِ والنقصان منهُ والجمع والتفريق بل لا ينطق الا بذلك اللفظ وعلى ذلك الوجه من الايراد والاعراب والتصريف والصيغة

ثم افاض الامام في هذا الموضوع بما هو غاية في بابه وحري بكل عالم من علماء الكلام عند المسلمين وبكل عالم من علماء اللاهوت عند المسيحيين ان يقف عليه فانهُ مما تتطاول اليه الاعناق وتطمح الى مثله الابصار في كل زمان ومكان . ولا يبعد عندي ان علو طبقة كلام الامام الغزالي في هذا المقام الكلامي التنزيهي هو الذي استهوى اهل هذه الفئة التي اشرنا اليها فعمّموا الامساك في كل الفاظ اللغة مع ان الامام خصه ببعض الفاظ منها وردت في القرآن وفي بعض الاحاديث مما يوهم التجسيم وبذلك حظروا على الكتبة والمتكلمين استعمال القياس حيث لا محظور من استعماله فابطلوا القياس بالقياس فيا للغرابة ويا للفهم والنظر الصحيحين

والغريب ان بعضاً من اهل هذه الفئة يتسامحون في القياس الا انهم يتأبّون كل لفظ قاستهُ العامة او استعملتهُ على سبيل الكناية او المجاز مع ان مسوغ القياس والمجاز هو من الظهور حتى لم يخف على هؤلاء وربما استعملوا بدلاً من ذلك اللفظ لفظاً آخر هو في الاصل قياس او مجاز من ذلك خبرهُ في مسألة كذا او تخابروا فانهم لا يسوّغون استعمال هذه اللفظة ويعدلون عنها الى نابأهُ في مسألة كذا وتنابأوا مع ان هذه الاخيرة مأخوذة من النبإ والاولى من الخبر. والنبأ والخبر بمعنى واحد الا ان الخبر اعرف واعم واشهر. وكذلك يأبون استعمال تكاتفوا على كذا من الكتف ولا يرون انها كتظاهروا من الظهر

على حين ان وضع الكتف للكتف في التعاون اقرب للفهم لانهُ اكثر مشاهدة من وضع الظهر للظهر . وبعضهم يرون استعمال التوفير من الكبائر ليس الاَّ لان العامَّة تستعملهُ بالمعنى الذي يراد استعماله أو وضعهُ له . وبعضهم يشدد النكير على عائلة الرجل بالمعنى الذي تستعملهُ العامَّة مع انها « كعاقلة الرجل » من عال عيالهُ كفاهم معاشهم ومأنهم او من عال الشيء فلاناً اهمَّهُ ومفادها بالقياس على عاقلة الرجل انهم الجماعة الذين يهمُّونهُ ولا اوضح من الكناية بها على نفس المعنى الذي يراد في الاستعمال الدارج . ومثل ذلك تشديدهم على الدارج . والخارج . والخارق . اذا استعملت بالمعاني التي تستعمل لها في الدارج . كل هذا غفلة عن النظر الصحيح وقد جرَّاليهِ ماسهوى القوم من القواعد الموضوعة لتنزيه الباري تعالى عن الجسميَّة على ما المعنا اليهِ . فيا لله . متى نعدل عن هذا التحرُّج الذي يقضي العقل والنقل بتركهِ

و لا يسعني المقام الآن ان اخوض في هذا البحث الى نهايتهِ وربما عدت اليهِ في وقت آخر اذا فتح لي المقتطف الاغرّ مجالاً بين صفحاتهِ (١) ولنرجع الى فتاة مصر فاقول ان الكاتب قال في صفحة ٧٩ آخر الوجه — ولكن الرجل الغنيّ المطموع فيهِ يتناتشهُ الناس من كل جهة — فان كان مبدأ الفئة التي اشرنا اليها صحيحاً كانت لفظة — يتناتشهُ — فيها شيء من العاميَّة وعندي ان هذه العاميَّة هي في منتهى الفصاحة ويا ليت الكاتب جاء في روايتهِ بمئات من امثال هذه اللفظة فانها لم تخرج عن القياس الواضح الذي لم يتغيَّب حتى عن العامَّة

(رابعاً الانتقاد على الرواية)

كأن يستشهد الكاتب ببيت من المنظوم او بفقرة من المنثور فينسبها الى غير قائلها او يورد فيها رواية اخرى غير المشهور فيتذرَّع المنتقد بما ورد من الخطاء الظاهر او الحقيقي الى التنقُّص من الكاتب والتهويل بما ارتكبهُ من الخطاء . وقد يكون كل ذلك مما لا طائل تحتهُ بالنظر الى غرض الكاتب . وقد ورد من هذا القبيل في فتاة مصر وجه ١٧٦

فقد تقلب الايام حالاتُ اهلها وتعدو على اسدِ الرجال الثعالبُ

وفي البيت رواية اخرى وهي (٢) وتعدو على اسد الدحال الثعالب

---

(١) (المقتطف) على الرحب والسعة فان المبتدئين بالكتابة لعلى غاية الاحتياج الى من يشدد عزائمهم ويسهل عليهم السير في سبيل القياس

(٢) المقتطف ما ذكرناه ليس رواية اخرى بل تصحيف في الطبع لم ينتبه له وقت تصحيح المسودات فنشكر فضل المنتقد على تنبيهنا اليه

وارجح انها الرواية الصحيحة ولكني لا ارى هذا التصحيح يزيدني فضلا او علماً كما انه لا ينقص كذلك من قيمة الرواية او من علم الكاتب وفضله

وبالا جمال ان كلا من الانتقادين في اللغة وفي الرواية ولاسيما الاول قد يكون تافهاً وقد يكون معتبراً . اما المعتبر فهو الانتقاد على الالفاظ القلقة في مواضعها وهناك الفاظ ارسخ منها واشد استحكاماً في مواضعها يمكن ان توضع بدلا منها. او تكون الفاظاً مترادفة لا يعرف الكاتب الفرق بينها في اصل الوضع فيظن ان المجاز المستعمل في الواحدة منها يصح في صاحبتها فيخطىء الغرض ويفوته بذلك طلاوة الكلام وحسن وقعه في النفس واما هذا الانتقاد على الالفاظ لانها مقاسة مع ظهور دلالتها على معناها ولا ظهور الصباح او لانها مما تستعملها العامة مع انها في مواضعها مما لا تقوم لفظة مقامها وهي مع ذلك جارية على مجاري القياس في الاشتقاق والمجاز لا خلل فيها من هذا القبيل الا انها غير واردة في امهات اللغة المتداولة فمن الانتقاد الجدير بنا الاقلاع عنه وان اسف اليه قوم لهم شأن ومكانة في عالم اللغة والادب

(خامساً الانتقاد المعنوي او الحقيقي)

وهو الانتقاد المعول عليه وبه يتنافس العلماء والفضلاء . والمقصود منه تجريح ما في الكتاب المنتقد وبيان مواضع الخطاء فيه ان وجدت والافيان محاسنه ومافيه من المواضيع المهمة النافعة للقراء . ومدار هذا النقد على موضوع الكتاب فان كان كتاباً تاريخياً مثلا فتجرح النقول فيه وبيان ما اذا كانت مما يعول او مما لا يعول عليها من جهة وما اذا كانت مستوفاة من جهة اخرى . ثم بيان ما اذا كان المستنتج من هذه النقول جارياً على مقتضى الاستنتاج العقلي الصحيح او ملويًا به عنه

وهكذا يقال في ما اذا كان موضوعه ادبياً او عقلياً او علمياً او سياسياً فانه ينظر اولا الى تمحيص الحقائق والمبادىء ثم ينظر ثانياً في تمحيص المستنتجات من تلك الحقائق وقد لا تقل احياناً فائدة هذا الانتقاد اذا كان مستوفى عن فائدة الكتاب المنتقد ويظهر فيه مقدار علم الكاتبين المنتقد والمُنتقِد عليه وفضلهما . ولا تكون نتيجة مثل هذا الانتقاد الا تنوير البصائر وتوسيع نطاق الحقائق ومايترتب على ذلك من الفائدة علماً وعملا

موضوع فتاة مصر وابحاثها

موضوعها او الغاية منها فكاهي تهذيبي وابحاثها اجتماعية عمرانية. أما الفكاهة فيها فاحكم ان الكاتب وفاها حقها من تشوق القراء الى الرواية وحديثهم فيها والذى اعرفه في هذا

الصدد انما اعرفه من نفسي واهل بيتي وبعض اصدقائي الذين يقرأون المقتطف وهؤلاء كلهم كانوا اذا تأخر عنهم المقتطف يوماً خالوه اسبوعاً ومعظمهم على ما اعلم كانوا يبادرون حين وصوله اليهم قراءة فتاة مصر. وقد لحظت ممن اشرت اليهم جميعهم ان غضبهم على عزرا كان شديداً وبلغ استياؤهم مبلغهُ عند ما قرأوا الفصل الثامن والعشرين والثلاثين الاول في التهييج والثاني في المرافعة واشتمُّوا منهما نجاة عزرا من الحكم عليه فلما ظهرت الحقيقة سري عنهم وبدت عليهم امارات الرضى والابتهاج

واما الغاية التهذيبية ففي وصف امرأة الخواجه لاشي وامرأة واصف بك وابنتهما وحليمة ودورا مايني بها. فان كل ما وصف به هؤلاء السيدات او اسند اليهن من الاقوال والافعال كان غاية في بابه في انه يرفع النفس في النساء الفتيات وربات البيوت ويحبب اليهن الفضيلة والتعقل والطهارة وسلامة النية المقرونة بالفهم وصحة النظر وبرغبتهن في كل ذلك وكل ما قيل عن امين بك وما اصابه واصاب اهله واصحابهم من الغم والحزن هو مما يكره بالبورصة وامثالها من المضاربات التي استغوت كهولنا وشبابنا . وهنا اذكر اني بعثت بهذه الرواية الى ابني في مدرسة الشوير فقرأها ولما رأيته في مسامحة عيد الفصح رأيت انه اثر فيه جداً ما قيل عن امين بما كره اليه البورصة وبدا لي منه ما يشف عن شدة احتقاره لها ولمن يتطوع جهلا في اشغالها مع انه لا يتم الثانية عشر من عمره قبل يونيو القادم . ولا اقول واقل ما استفاده (وهو من اعظم الفائدة) انه تولد فيه مقت ونفور شديد من هذه المغواة الجهنمية التي ذهبت باموال الكثير من تجارنا وابناء الاغنياء والكبراء منا

وكل ما قيل عن هنري برون هو في بابه خير للشبان والطلبة من عشرين خطاباً موضوعها في الجد وعلو الهمة والتجافي عن البذخ والاسراف وانصراف النفس الى المعالي وبذلها في الواجب وخدمة البلاد والامة والحكومة

واما بقية الاغراض العمرانية من قوة المال والماليين واسباب الثورة الروسية فيكفي الفهيم اللبيب ما اودعه الكاتب فيها من الحقائق والمباحث الدقيقة مما هو غاية في بابه. وليس لي شيء اقوله في انتقاد هذا الموضوع الا تحفظ الكاتب وهو ما يتطلبه العلم وحنكة السن وخير للكاتب ان يعرف القارئ ما يريد ان يقوله من غير ان يقوله. الا اني لا انكر ميلي الى تجريح ما جاء به الكاتب في صدد الكلام عن مبدإ تنازع البقاء وبقاء الانسب الا اني بعد طول الفكرة وجدت نفسي لا اقوى بعبارتي على تصحيح ما قيل في هذا الباب الفلسفي الواسع الاطراف وان كنت اشعر بنفسي اني اقوى على ادراك ان هناك خطأ وشيئاً يقتضي التجريح

والخلاصة ان هذه الرواية بديعة في بابها واسلوبها البلاغي وابحاثها والذي اعتقده انه

لم ينسج بعد احسن منها ولا مثلها وقد خلت من كل تضليل تاريخي يمكن ان يقع في الروايات التاريخية ووقع شيء في رواية قلب الاسد وماهو على شاكلتها من الروايات كما انها خلت ايضاً مما قد لا تخلو منه رواية فكاهية مما يحرك النفس الشهوانية اوعاطفة الحب الطبيعي بما يضر الشبان والشابات ويدفعهم الى ما وراء الحد الذي لايحمد اندفاعهم اليه . وغاية ما اقوله في هذا الصدد اني لا اخشى مغبةً من قراءتها على تلميذ او على ابني او ابنتي او او فجزى الله مؤلفها خيراً ولا اقول ما اقول تقرباً من كاتبها فانه استاذي بكل ما تحمله هذه اللفظة من المعنى الحقيقي للاستاذ وانا تلميذه بكل ما يجب ان تتضمنه لفظة تلميذ من المحبة والاعتبار . وليس بين الاستاذ والتلميذ اذا كانا على هذه الصورة ما يسوغ ان يتوهم فيه انه من قبيل التقرب ومجرد حب الزلفى بوجه من الوجوه والسلام

مهد الجنس السامي

خطبة تليت في صيدا ٢٨ حزيران (يونيو) ١٩٠٧ في حفلة مدرسة الفنون لاميركانية السنوية لاعطاء شهاداتها لتلامذتها المتهين

ايها السادة والسيدات الكرام . لا اعتذر في موقفي هذا عن اني اتخذت هذا الموضوع دون غيره من بقية المواضيع وهي كثيرة لانه موضوع ساقني اليه والى البحث فيه حرفتي الخصوصية فان من درّس النحو العربي في المدرسة الكلية نحواً من خمس عشرة سنة متواليات واضطر الى قراءة آداب هذه اللغة سنين عديدة قياماً بفروض حرفته وايفاء وظيفته حقها لا بد له اذا خير من ان يختار الكلام في موضوع شبيه بموضوعي او في ما يقاربه. بل اعتقد انني وفقت في انتقاء الموضوع لا احساناً مني بل حسنة كانت من السادة والسيدات الذين يسمعون اراد الله ان يكافئهم عليها من حيث لا يشعرون ليعلموا ان جزاء الحسنة لا يضيع عندهُ تعالى . والاَّ فما كان يمنعني وقد تُرك لي ان انتقي الموضوع لنفسي من اني كنت اخذت علم النحو وفائدتهُ وتاريخهُ وتاريخ الذين اشتغلوا بهِ حتى وصل الى ما وصل اليهِ في حالتهِ الحاضرة او علم البيان ومنافعهُ وتاريخ الذين الَّفوا فيهِ كذلك .ولو فعلت ذلك فكيف كانت حالتكم ايها الكرام في اثناء هذه المدة التي لا خيار لكم فيها الاَّ ان تسمعوا وتصغوا احتراماً للموقف العلمي الادبي الذي دعاكم الى احياء هذه الليلة الشائقة — الله اعلم ماذا كانت حالتكم ! اذن اكدوا ايها السادة والسيدات الكرام انكم مجازون عن حسنة او حسنات صدرت منكم فيما سبق وكان الجزاء انى صُرفتُ عن الكلام في اسهل ما يمكنني الكلام فيهِ وفقاً لما تقتضيهِ حرفتي الخصوصية على ما الحت اليهِ

قلت ايها السادة اني اخترت الكلام عن موضوع لهُ مساس بموضوع حرفتي على انهُ مع قربهِ منها بحسب الظاهر فهو بعيد عنها بعد ما بيننا وبين قلب البلاد العربية مأرب اونجران في بلاد اليمن وشباي او ساوي في حضرموت ورياض اوسدوس في نجد اذا قصد الوصول الى هذه الاماكن او بعضها براً عن طريق تيماء والحجاز : واي قرب بين النحو والبيان وما اليهما من العلوم العربية من حيث هي علوم آلية وبين مهد الامم السامية ؟ بل عند التحقيق اكثر مما صورناه بالبعد المكاني المحسوس . ولو علمتم ايها السادة ما عانيتهُ من البحث والتنقيب في الآونة المتأخرة وما بذلته من الفكرة والسهر ليلاً والاستيقاظ باكراً الى متابعة درس هذا الموضوع نهاراً لقلتم جادك الله ولرأيتم اني استحق شيئاً من انتباهكم وتوجه اصغائكم اليَّ من غير مالٍ الى ان اكون قد فرغت من تلاوة ما كتبتهُ

عليكم . والمرجح عندي اني ساحظى بهذا الفضل والمجاملة منكم

تعلمون ايها السادة ان سوريا وطننا العزيز عموماً وصيدا اقدم مدن هذا الوطن خصوصاً كانت منذ الوف من السنين ولا تزال لحد هذه الساعة تتكلم بفرع من اللغة السيامة وبعبارة اخرى كان يقطنها شعب من الجنس السامي يتكلم باللغة السامية . ومثل صيدا صور وعكا وحيفا ويافا وغزة وعسقلان وبيروت وجبيل وطرابلس وارواد وعكار وحمص ودمشق وسائر مدن سوريا الى ان تصل الفرات ودجلة . بل على شواطىء هذين النهرين العظيمين قامت اشهر ممالك الازمنة الغابرة مملكتي بابل واشور . وكان الشعب السائد والمسلط حينئذ في كل هذه الاقطار ساميًّا او يتكلم باللغة السامية . ومن سواحل هذه المدينة اعني صيدا العريقة في القدم ومن سواحل صور العظيمة جَلَتْ جاليات استعمرت سواحل هذا البحر العظيم — البحر المتوسط — شمالاً وجنوباً في اوروبا وافريقيا وحملت الى تلك الاصقاع التجارة والصناعة والدين والآداب والعلم وكل ما يحملهُ الغرب الآن الى قاب افريقيا واستراليا وجزائر الباسيفيك ان لم اقل الى قلب اسيا والاصقاع النائية منها . وكل هذه الجاليات كانت سامية او تتكلم باللغة السامية . فمن اين جاءت هذه الشعوب العظيمة القديمة واين كان مهدها الذي نشأت وترعرعت فيهِ الى ان شبت وبلغت وهاجرت واستعمرت . وبعبارة اخرى اين كان المهد الذي نشأنا فيهِ نحن بقية اولئك الشعوب القديمة العريقة في الدين والتمدن والعلوم والصنائع والمهاجرة والاستعمار وما الى ذلك من ظواهر العز والمنعة والتغلب التي هي من دلائل التفوُّق والارتقاء في العقل وايضاً في الهمة والاقدام اللذين ما بعدهما همة ولا اقدام

مضى على العالم قبل تاريخنا المسيحي خمسة وعشرون قرناً وصلت الينا اخبارها كتابةً وآثاراً وما سوى ذلك قرون لا يعلم عدتها الاَّ الله وليس في العالم المعروف حينئذٍ اعني اوربا وافريقيا والشرق الادنى تجارة الاَّ وهي في يد هذا الشعب الذي يتكلم باللغات السامية ولا مهاجرة او استعمار الا والمهاجر والمستعمر جاليات منهُ ولا صناعة ولا زراعة راقية الا ان يكون هو الصانع والزارع بل لم تكن صولة الا صولتهُ ولا تمدن الا تمدنهُ ولا علم ولا آداب الا في شعوبهِ وقبائلهِ كما تشهد آثاره الخالدة الباقية الى الآن وستبقى دليلا على عظمة هذه الامم وشاهداً عدلا ينطق عنها ويشهد بما كان لها من الحيطة والوصاية والولاية على التمدن القديم فضلاً عن التأثير العظيم الذي أثرته فيهِ رأساً ومباشرة ومن بعضهِ ما تركتهُ لنا يد الدهر اثراً بعد اهلهِ في خرائب بابل واشور واليمن وفي مصر ايضاً والشام . واغلبكم ايها السادة والسيدات الذين تسمعون كلماتي هذه الليلة من بقايا اولئك

الاقوام الذين كان من صفتهم ما قد سمعتم ولا يزال فيكم على ما اعتقد عروق تنبض من همتهم واقدامهم وتفوقهم . أفما يهمكم اذن او على الاقل اما يجتذب سمعكم واصغاءكم الكلام او البحث في المهد الذي نشأ فيه آباؤكم الاولون والمواطن الاولى التي تفرقوا منها تجاراً ومستعمرين وغزاةً فاتحين . بلى انهُ يهمكم ذلك والا فانتم براء من اولئك الاقوام وبراء مما كان فيهم من الهمة والاقدام واقل ما يقال فيكم انهُ ينقصكم التشوف الى بلوغ بعض ما كان لهم من التفوق والارتقاء في مراقي العز والشرف . ولكن يأبى الله والواقع ان يتوجه اليكم شيء من هذه التهمة الشنعاء فاسمعوني اذن سمح الله لكم وانتبهوا الى سلسلة ابحاثي انتبه اليكم طرف الدهر الراقد بتنه وكرمه ان شاء الله

لا يسعني الوقت ان اذكر لكم المذاهب التي ذهب الى كلّ منها فريق من اكابر علماء الآثار في الوقت الحاضر فاني لو فعلت ذلك لاقتضاني الامر ان اخطب فيه سبعة ايام متوالية كل يوم نصف ساعة على الاقل وهذا مما لا تقوون على احتماله ولا اقوى انا ايضاً على القيام به فيما لو اردتهُ . المحت سابقاً الى الشعوب التي تركت ما تركت من الآثار العظيمة في ممالك بابل واشور وان هذه الشعوب كانت تتكلم فرعاً من اللغة السامية واقول هنا ايضاً ان الآثار تدل دلالة صريحة أن قد كان في تلك البقعة امم اخرى سبقوهم الى عمارة تلك البلاد منهم أمة السومريين وكانت لغة هؤلاء الاقوام السابقين لغة اخرى بعيدة كل البعد عن اللغة الساميّة وكذلك كانت عوائدهم واخلاقهم وآدابهم . وهؤلاء الذين تغلبوا عليهم جاؤوا البلاد فاتحين وبنوا على انقاض تمدنهم ذلك التمدن السامي العظيم الباقية آثارهُ الى اليوم . فمن اين جاء هؤلاء الفاتحون . لا يمكن ان يكونوا قد جاؤوا من شرقي الفرات ودجلة ولا من شرقي خليج فارس ولا من شمالي هذه المواضع لاننا لا نعلم ولا هنالك آثار على الاطلاق تدل انهُ كان في تلك الاصقاع المذكورة شعب سامي بل كانت البلاد ولا تزال يسكنها الماديون القدماء والفرس ومن سواهم من امم الاكراد والتركمان او من قاربهم من فصائلهم وشعوبهم . وعليه فان هؤلاء الغزاة الفاتحين الساميين او الذين يتكلمون اللغة السامية لم يأتوا الى بلاد ما بين النهرين من الجهات التي ذكرناها

وكذلك يقال انهم لم يأتوها من اسيا الصغرى وشطوط البحر الاسود ولا من البلاد التي تناخمها لان لغات اهل هذه الاصقاع واخلاقهم وعوائدهم وآدابهم وتمدنهم بعيدة كل البعد عن لغة واخلاق وعوائد وآداب وتمدن اهل بابل واشور المتكلمين باللغة السامية والناشرين لواء التمدن السامي واخلاق اهله وعوائدهم وآدابهم وانواع دياناتهم . فلم يبقَ لنا اذن الآن الا القول انهم جاؤوا من جهة الجنوب اعني البلاد العربيّة . فالبلاد

العربية هي اذن مواطن الاشوريين والبابليين الاولى والمهد الذي نشأوا فيهِ قبل ان قدموا غزاة وفاتحين الى بلاد ما بين النهرين وهي البلاد التي تركوا لنا فيها آثارهم الخالدة وآداب لغتهم السامية مكتوبة على اوراق من الاجر . لغة ما زالت لغة التجارة والادب والعلم والدولة في العراقين والشام ومصر اجيالا بعد انقراض دولتهم واستيلاء دولة الفرس الاولى على هذه الاصقاع والممالك بل كانت لغتهم هذه لغة لدولة الفرس الرسمية حتى في آسيا الصغرى حيث كان للغة اليونانية والآداب اليونانية ما كان من النفوذ والانتشار

اذا حولنا نظرنا عن شعوب ما بين النهرين الى الشعوب او القبائل التي استعمرت بلادنا هذه من شمالها الى جنوبها ومن غربها على ساحل المتوسط الى بادية السماوة والحجاز رأينا لغة تلك الشعوب عن آخرهم لغة سامية بحتة . اما العمالقة في الجنوب ومن على شاكلتهم من الشعوب المتاخمة العربية فقلما يشك في انهم جاؤوا رأساً من البلاد العربية . والعقل هنا يتفق مع النقل فان مؤرخي العرب اجمعوا عن آخرهم ان عمالقة الشام القدماء جاؤوا اليها عن طريق الحجاز . واما العبرانيون واخوتهم الادميون وابناء عمهم العمونيون والموابيون فرحلوا الى سوريا في عصر متأخر مما بين النهرين ومثلهم اراميو دمشق ايضاً فانهم وان كانوا قد سبقوا العبرانيين الى الرحلة والاستيطان في داخلية البلاد لا يخرجون عن انهم مثلهم اي من فج الساميين ولذلك فمواطن آبائهم الاولى كانت البلاد العربية ومنها رجعوا الى ما بين النهرين وبعد استيطانهم هناك مدة لا نعلم مقدارها عادوا الى الرحلة فانتهت بهم الى سوريا ولا شك انهُ كان يضاف اليهم من حين الى آخر شراذم من قلب البلاد العربية ومن شمالها يرحلون اما تجاراً او على قصد النجعة اولا فتطيب لهم البلاد ويزمعون على الاقامة فيها . وليس هذا بالامر المستغرب الذي لا يقبلهُ العقل ولا هو بالنادر الذي لم يسمع بمثلهِ او لم يتكرر في الايام بل قد تكرر مراراً . ولنا شواهد كثيرة نبدأ باقربها من زماننا الحاضر . من ذلك ما كان اوائل عهد المسيحية فان الغسانيين هاجروا الى الشام من اليمن وبعد كثير من الحل والترحال القوا عصا الاقامة في الشام وحوران واتصلت مواطنهم من هناك الى الفرات شمالا . وكان رحَل من قبلهم ايضاً الساحيون والضجاعمة والتنوخيون والقوا عصا اقامتهم بالشام وفلسطين شرقي البحر الميت وجنوبيهُ . ومن قبل ذلك ايام عزرا ونحميا كان جشم العربي يناصر طوبيا العموني وسنبلط الحوراني على اليهود في اورشليم . ومن قبل ذلك في اثناء غزوات نبوخذ نصر ملك بابل كان ارميا النبي يتنبأ عن هلاك قيدار وبني المشرق الامة التي لا مصاريع ولا عوارض لها وتسكن وحدها . الامة الكثيرة الجمال والماشية المقصوصة الشعر مستديراً . اوصاف تدل على ان

ارميا التي كان عارفاً بالعرب كما نعرف نحن الآن اهل اورشليم او اهل السلط ان لم يكن اكثر من ذلك. ومن قبل ارميا باجيال في ايام ايليا النبي اهاج الرب على يهورام ملك يهوذا صهر آخاب ملك اسرائيل روح الفلسطينيين والعرب الذين بجانب الكوشيين فصعدوا الى يهوذا وافتتحوا وسلبوا كل الاموال الموجودة في بيت الملك . وقبل ذلك ايضاً في ايام سليمان كان شعراء اسرائيل يعرفون خيام قيدار ويشبهون بها في اشعارهم . بل في ايام شاول كان العمالقة وبنو المشرق مناخين لاسرائيل . واقدم من ذلك بكثير اعني في ايام جدعون كان ذئب وصلعاء وغراب وذئب ملكين من ملوك المديانيين والعمالقة وبني المشرق واميرين من امرائهم . وكان هؤلاء الاقوام يصعدون بمواشيهم وخيامهم ويجيئون كالجراد في الكثرة وليس لهم ولجمالهم عدد فينتشرون غلة الارض من حوران فنازلاً كل شرقي الاردن حتى تجيء الى غزة

بل مخالطة عرب بلاد العرب لسوريا يتصل عهدها بايام ابراهيم وما قبلهُ ايضاً فان اسمعيل بن ابراهيم سكن بينهم وكذلك اولادهُ من قطورة. وكانت طريق التجارة بين مصر والعراق من ذلك الحين وما قبلهُ في ايديهم. وحويلة التي يذكرها سفر التكوين في الكلام عن مواطن الاسماعيليين لا يبعد على ما ارى ان تكون بلد ابن الرشيد في جبل شمر المعروفة اليوم بحائل ولا تزال المشابهة بين الاسمين الاسم القديم والاسم الحالي واضحة جداً بحيث لا تخفى على متأمل . وقد ذكرت ما ذكرتهُ بياناً لشدة ما كان من المخالطة بين سوريا وبلاد العرب من اقدم الازمنة التاريخية لحد هذه الساعة مما يستدل منهُ على ان العربية ما زالت من اقدم الازمنة المعروفة ترمي بتموجات من بنيها حيناً بعد آخر على اطراف سوريا وانهُ وان يكن معظم شعوبها من الفرع السامي العراقي فقد كان كثير من بنيها ايضاً في ذلك الزمان من الفرع السامي العربي . ارجح ان الرفائيين في عشتاروت قرنايم والزوزيين في هام والايميين في شوى قريتايم والحوريين في جبلهم سعير الى بطمة فاران التي عند البرية والعمالقة في عين مشفاط التي هي قادش والاموريين في حصصون تامار والعناقيين في حبرون كل هذه القبائل كانت من الفرع السامي العربي . ولا يستبعد ذلك فان الدولة التي كانت تستولي على مصر في ايام ابرهيم وتعرف بالملوك الرعاة او الهكسوس كانت من الفرع السامي العربي وجاءت مصر عن طريق بلاد العرب . وهؤلاء القبائل والشعوب الكنعانية كانوا معاصرين لها والارجح انهم جاؤوا معها وحلوا في سوريا في اثناء الزمان الذي حلت فيهِ تلك الدولة بلاد وادي النيل ان لم يكن قبل ذلك « بسبع سنين »

ومن اغرب الاتفاقات التي عثرت عليها ان الاحبرون او الخليل اليوم على ما ذكرهُ

الاستاذ العلامة سايس كانت تسمى بلاد خيبري . وابن خلدون يقول نقلاً عن الطبري ما يفهم منهُ ان خيبري هو بطن من بطون عاد وان رئيسهم او احد امرائهم جلهمة ابن خيبري كان في جملة الوفد الذي ارسلهم قوم عاد الى مكة في دولتهم الاولى للاستسقاء لهم وكانوا قد احتبس عنهم المطر ثلاث سنين فجاء الوفد ونزل على معاوية ابن بكر العادي بداعي أن هزيلة اخت معاوية هذا كانت عند نعيم ابن هزال احد الوفد . وبعد ان اقاموا اشهراً في ضيافته انبعثوا ومضوا الى الاستسقاء وتخلف عنهم لقمان ابن عاد ومرثد ابن سعد . فلما رجعوا الى معاوية ابن بكر لقيهم خبر مهلك قومهم ومن جملتهم الخلجان ملكهم هلك بالريح فيمن هلك . قالوا كانت الريح من الشدة بحيث تقلع الشجر وترفع البيوت وكانت تدخل ايضاً تحت الرجل فتحمله الى الجبال وما زالت كذلك ثمانية ايام حسوماً حتى تقطع القوم وهلكوا عن آخرهم

واذا عارضنا هذا النقل بما ذكرهُ العلامة سايس ترجح معنا الحكم ان سكان حبرون الحبيريين هم قبيلة من القبائل العربية الجنوبية رحلوا في جملة من رحل للفتح ايام الدولة العادية الاولى واحتلوا حبرون وكانوا فيها معاصرين للملوك الرعاة وقد سبقوهم الى الاستيطان والتجارة في تلك الاصقاع (١)

ومثل ذلك في الغرابة والدلالة ان لم يكن اغرب وادل ان بلد امير هي من بلاد اليمن والمشابهة ظاهرة بين اميريين أي من بلاد اميره وبين الاموريين اشهر قبائل كنعان القديمة الذين اورث الله ديارهم ومساكنهم لبني اسرائيل . وكذلك نقول في حورة مدينة كندة القديمة او الحوار مدينة الاصجبين من حمير فان المشابهة تامة بين المنسوبين الى احد هذين البلدين وبين الحوريين سكان ادوم وجبال الشراة قديماً قبل ان نزل عليهم عيسو ابن اسحق بن ابرهيم الخليل* على ان ما ذكرناه في شأن الاموريين والحوريين والحبيريين هو على وضوحه مبني على الظن فان تكشفت لنا بلاد اليمن عن كتاباتها بالخط المسند بما يرجح هذه الظنون او يثبتها فيه والاَّ فتبقى اقرب الى القبول من غيرها من الظنون والاقاويل التي عثرنا عليها الى الآن

---

(١) جاء في سفر العدد ان حبرون بنيت قبل صوعن بسبع سنين . فاذا فرضنا وهو المرجح ان قبيلة خيبري العادية كانت من جملة القبائل التي جاءت مع الملوك الرعاة وانها اخذت حبرون داراً لها فتكون حبرون ضرورة اقدم من صوعن لان صوعن عاصمة الرعاة لم يتخذها هؤلاء عاصمة لهم الا بعد حرب سنين لا تقل عن السبع في الراجح اخضعوا في اثنائها سكان البلاد من حبرون وجنوبي حبرون الى صوعن وهذه الاشارة ظاهر دلالتها كل الظهور وتؤيد القول ان الحبيريين سكان حبرون (على ما ذكر العلامة سايس) هم احد قبائل الملوك الرعاة كما ان القول في اصل الحبيريين على ما سر فيه تعاليل ظاهر وبرهان واضح على صحة هذه الاشارة التاريخية

يبقى علينا من شعوب كنعان الفينيقيون اهل التجارة والاستعمار في العصور الاولى قبل التاريخ المسيحي . الشعب الذي لم يقم مثلهُ في همتهِ ونشاطهِ واقدامهِ ومياههِ الى الرحلة والاستعمار في كل من نعرفهم من الشعوب القديمة بل كل منصف يتردد في تفضيل شعب آخر عليهِ الى الآن وان كان شعب بريطانيا العظمى . وعندي ان بني بريطانيا اهل الاستعمار اليوم واهل التجارة والسؤدد انما يحركهم اليهِ من التوسع في التجارة والاستعمار بقايا ما ورثوه من هؤلاء الفينيقيين العظام فانهم اعني الفينيقيين في الراجح استعمروا كثيراً من بلاد الانكليز واختلطوا باهلها قبل العصر المسيحي . اني اقول ما اقولهُ الآن الا كما يقول المؤرخ او الاثري الثقة بل كما يقول الخطيب على سبيل التهويل لكن في تهويلهِ شيئاً من الصحة والحقيقة او شبه منهما

من اين جاء هذا الشعب العظيم الى سواحل سوريا واين كانت المواطن التي توطنها هؤلاء التجار المستعمرون قبل ان بنوا صيدون العظيمة وصور ملكة البحار وتاجرة العالم * انَّ لغتهم من لغة الفرع الارامي اعني لغة الذين شيَّدوا بابل وارك واكد وكلنة . ولكني لا ارجح انهم جاؤوا من بين النهرين من حيث جاء انسباؤهم العبرانيون والعمونيون والموابيون واعني بالنسب هنا النسب في اللغة لا في الآباء . فمن اين جاؤوا اذن. ان اليونان ينقلون عن مواطن الفينيقيين الاولى خبراً لا نعلم ممن اخذوه ولكنهُ جدير بالقبول وهم يقولون انهم جاؤوا من خليج فارس من بلاد البحرين . وبلاد البحرين على ما تعلمون جزء طبيعي من بلاد العرب . هناك اي في بلاد العرب كانوا اولا . وفي بلاد البحرين على شواطىء خليج العجم من القطيف الى شرجة وراس منصدم حيث جزيرتا كشم واورمز كانت مساكنهم الاولى . وارجح انهم ارتحلوا من هناك اولاً الى صور وصيد في عمان واليمن. ولولا مخافة ان يقال اشتط هذا في رأيهِ لقلت ان القوم غزوا في ارضهم . غزاهم احد الملوك الاقدمين كما غزاهم يختنصر من بعد في بلاد الشام واشتدت عليهم وطأتهُ ووطأة دولتهِ من بعده فهاجروا فرقة بعد اخرى فمنهم من هاجر الى صور في بلاد عمان ومنهم الى صَيْدا في جنوبي اليمن بين زبيدة ومخا كما مرَّ ثم من هناك الى الدلتا في مصر اذا صح ما يقال ان في الدلتا آثاراً منهم . ثم من هناك الى شطوط فينيقية . والذي اراهُ بناء على ما ذكرت ان صيدون تصغير صَيْدا باللغة الارامية او نسبة اليها فان كان الاشتقاق من التصغير فهم سمُّوا مدينتهم بهذا الاسم اي سموا البلد الذي نزلوهُ اولا باسم البلد الذي كانوا فيهِ وفرَّقوا بينهما بالتصغير طبقاً للواقع لان البلدة التي بنوها كانت اصغر من التي هاجروا منها. وان كان الاسم من النسبة فالتسمية كانت من القوم الذين نزلوا بينهم كما يسمَّى

من هاجر صيدا الى قرية من قرى مرج عيون او لبنان مثلا بالصيداوي وهو معروف شائع من الوف سنين الى الآن . فان قيل لم زعمت انهم هاجروا اولا الى عمان وجنوبي اليمن. قلت لانه في بلاد عمان اسم صور ولا يزال في جنوبي اليمن شمالي باب المندب اسم صَيَد لبلدٍ ووادٍ وجبلٍ ونقيلٍ (اي طريق صعب تكاد لا تسلكه الدواب) ولا يزال قومٌ يعرفون بالصَيَدي اي من اهل صيد متفرقين في غير مكان من بلاد اليمن . وهذه الاسماء عريقة في القدم مثل كل اسماء البلاد العربية ولا يخبرنا التاريخ ولا التقليد ان أهل هذه الاماكن رحلوا اليها من بلاد اخرى بخلاف صور وصيدا في فينيقية فانا نعرف من التقليد المتواتر ان لم نقل من التاريخ ان اهل صور وصيدا جاؤوا اليهما من البلاد العربية . والذي نعرف عن العرب (وعن غيرهم من الامم ايضاً) انهم اذا استجدُّوا داراً وعمروا فيها مدناً سموا تلك المدن باسماء مدنهم الاولى التي كانوا فيها . ولا يزال كثيرٌ من مدن اسبانيا التي استجدها العرب شاهداً على ما ذُكر فانهم سموها باسماء مدن الشام التي كانوا فيها اولا

فان قيل ان لغة الفينيقيين هي من الفرع الآرامي فكيف مع هذا رجحت انهم جاؤوا من بلاد العرب . قلت ان مواطنهم الاولى كانت في البحرين على الخليج الفارسي. وهذه المواطن ابداً يتنازعها الفرعان الساميَّان العربي الى الجنوب والغرب والآرامي الى الشمال واكثر ما كان النفوذ الغالب فيها النفوذ الآرامي . ومن المتواتر على لسان العرب ان اهل البحرين نبط استعربوا . ويؤخذ من هذا انهم كانوا يعلمون ان النبطية اي الآرامية كانت الغالبة في الازمنة الاولى على ارض البحرين . وفي هذا تعليل مقبول على ان اهل صور وصيدا هاجروا من بلاد العرب وكانت مع ذلك لغتهم من الفرع الآرامي

بقي علينا الاحباش على العدوة الثانية من البحر الاحمر فان فريقاً منهم يتكلمون لغة هي اقرب اللهجات السامية الى اللهجة العربية وهم الغالا (على ما ارجح) وفريق آخر وهم الامهريون يتكلمون لغة تداخلت فيها اللغة السامية ولكن كثرتها لغة الاقوام الاصليين وهي لغة حامية محضة حتى غلبت عليها فلا يظهر فيها العرق السامي الا بعد الروية وامعان النظر . واذا نظرنا الى اولئك الذين يتكلمون الحبشية العربية رأيناهم قلائل عدداً بالنسبة الى الامهريين وبالنسبة ايضاً الى بقية امم الحبشة وافريقيا الذين هم من اصل حامي . ولا يعلل ذلك تعليلا يقبله العقل الا بان العرب في زمن بعيد جداً نزحت منهم نازحة كثيرة العدد فحفظت لذلك لغتها عن ان تتغلب عليها لغة الحاميين الافريقية . لكن نشط من هذه النازحة ناشط او جاء هذا الناشط من البلاد العربية رأساً فسكن بلاد

الاماهرة وكان له عليهم الغلبة والسودد لارتقائه في سلّم المدنية ثم امتزج مع الأهلين على عادة الساميين. ولقلة عدده كثرة القوم فغرقت لذلك لغته وملامحهُ في لغة الاماهرة وملامحهم حتى لا يكاد يبين. ومثل ذلك يقال في لغة مصر القديمة فان اهل الثقة من علماء اللغات يرون في لغة وادي النيل عروقاً او تكييفات احدثتها مقاناة او ممازجة من اللغة السامية فيها ولا يعلل ذلك الا بان هذا الجنس ممثل المدنية الاولى في العالم كانت له غلبة يوماً على مصر وهذه الغلبة في الراجح اقدم من غلبة دولة الرعاة بكثير. ثم تلا هذه الغلبة غلبات. منها غلبة الهكسوس المعروفة في التاريخ والناطقة بها آثار مصر. ومؤرخو العرب مع اختلاط اخبارهم وكثرة التشويش فيها يشف كلامهم ونقولهم عن غير غلبة للعرب على بلاد الفراعنة. من ذلك غلبة او غلبات في ايام الدولة العادية وغلبة في ايام الدولة الحميرية او السبائية او النوبية

وخلاصة القول ان اللغة السامية المنتشرة كانت ببلاد العرب مهدها الاول الذي نشأت فيه قبل الفتح الاسلامي بين الفراتين وخليج العجم شرقاً وشمالاً والنيل والبحر المتوسط غرباً وبحر العرب جنوباً مع ما يلحق بذلك من شواطىء شمالي افريقية. فبلاد العرب هي اذن مهد الجنس السامي ومنشأ المدنية الاولى ولا يزال فيها على رغم ظواهر الانحطاط والتأخر البادية عليها كل مقومات تلك المدنية ولا يمنع من ظهورها الا ضغط عليها من الخارج لا يلبث ان يزول عنها حتى تسطع شعلتها للمرة الثالثة كما سطعت المرة الثانية ايام الفتوحات الاسلامية